جي دي موباسان

حكايات الصيد

ترجمة : حسام أبو سعدة

حكايات أبو فصاد

كان البارون العجوز «رافو» هو ملك الصيادين فى إمارته لمدة أربعين عامًا. لكن من خمس أو ست سنوات أصاب الشلل ساقيه وغرسه فوق المقعد. أصبح لا يستطيع إلا صيد الحمام من نافذة الصالون أو من أعلى سلم المنزل. ثم يقرأ أثناء بقية النهار.

إنه رجل أعمال محبوب، لازال يحتفظ بالأفكار الأدبية من القرن الماضى. يحب الحكايات، الحكايات القصيرة الخليعة وأيضًا الحكايات الحقيقية للمحيطين به. ما أن يأتى إليه أحد الأصدقاء حتى يسأله:

- حسنًا، ما هى الأخبار؟

ثم ينهال فى الأسئلة و الاستفهام كما لو كان محققًا فى النيابة أو قاضيًا.

فى الأيام المشمسة يدفع مقعده الوثير الذى يشبه الفراش إلى عتبة الباب. يقف الخادم خلفه حاملاً البنادق، يعمرها بالطلقات الصغيرة ثم يقدمها لسيده. وهناك الخادم الآخر يختبئ خلف الأشجار يترك حمامه من حين لآخر على مسافات متفاوتة حتى لا يغفل سيده و يظل نشيطًا.

من الصباح إلى المساء يطلق النيران على الطيور السريعة. يحزن كثيرًا إذا أفلتت واحدة ويضحك بشدة حتى تنهمر الدموع من عينيه عندما تسقط الحمامة أو عندما تفعل أية حركة غير متوقعة ومضحكة. يلتفت إلى الخادم الذى يعمر له البندقية ويسأله مبتهجًا:

- هل رأيت مثل ذلك يا «جوزيف»؟ هل رأيتها وهى تسقط؟

«جوزيف» يجيب بلا تفكير:

- آه! سيدى البارون لا يفلت شيئًا.

فى الخريف، موسم الصيد، يدعو أصدقاءه مثلما كان يفعل فى الأيام الغابرة. يحب الاستماع إلى صوت الطلقات من بعيد. يعتقد أن الطيور تكون سعيدة وهى تتساقط. فى المساء يطلب من الأصدقاء أن يقصوا عليه ما حدث أثناء النهار.

إنها حكايات غريبة ومغامرات مثيرة للصيادين. بعض الحكايات قديمة معروفة من المأثورات الشعبية. حكاية الأرنب الذى فقده الشريف االصغير في بهو المنزل يقصونها عليه كل عام وبنفس الأسلوب. كل خمس دقائق يقول متحدث جديد:

– سمعت صوتًا غريبًا ثم ظهر لى قطيع رائع على بعد عشر خطوات. صوبت سلاحى ثم انهمرت الأمطار بشدة. رأيت سبعة حيوانات.

يندهش كل الحاضرين لكنها ليست دهشة حقيقية.

توجد عادة قديمة فى المنزل اسمها: حكايات «أبو فصاد».

أثناء مرو هذه المملكة من الفرائس تبدأ نفس الاحتفالات كل ليلة.

لأنه يحب الطيور الغامضة يأكلها كل ليلة مع المدعوين. لكن كل منهم يحرص على ترك رأس الطير في الطبق.

ثم يتعاملون مع البارون مثل المطران. يضعون فى طبق قليل من الدهن. يلتقطون الرؤوس الثمينة من خلال مناقيرها. يضعون بجواره الشمعدان و يجلس الجميع صامتًا مبتهجًا.

ثم يختار أحد الرؤوس و يثبتها فوق دبوس ويثبت الدبوس فى الفلين ثم يرفع الفلين من الوسط ويسمح لها بالحركة مثل الميزان و يغرس هذا الجهاز فى سدادة زجاجة لتصبح مثل الباب الدوار. كل المدعوين يرددون بصوت قوى:

- واحد .... اثنان .... ثلاثة.

ثم يبدأ البارون فى إدارة هذه اللعبة بإصبعه. عندما تقف وتشير إلى رأس معين من الطيور يصبح على صاحب هذه الرأس أن يقص حكاية.

وهذه هى بعض الحكايات.

●●●

الخنزير «موران»

- ١ -

قلت لـ «لابارب»:

– هكذا صديقى قلت كلمتين «خنزير موران». لماذا أيها الملعون لا نسمع أى شىء عن « موران « دون الحديث عن هذا الخنزير؟

اليوم، «لابارب» نظر إلىّ بعيون قطة شرسة ثم قال:

- كيف لا تعلم حكاية «موران» و أنت من «لاروشال»؟

أعلنت أننى لا أعلم حكاية «موران».

هكذا فرك «لابارب» يديه وبدأ حكايته. قال:

– أنت تعرف «موران» أليس كذلك؟ وتتذكر متجره الكبير للأقمشة و الخردوات على رصيف «لاروشال»؟

– نعم، أعرف ذلك جيدًا.

– حسنًا، لتعلم أنه فى عام ١٨٦٢ أو ٦٣، ذهب «موران» لقضاء خمسة عشر يومًا في «باريس» للتنزه والاستمتاع، لكنه

اتخذ من تنمية التجارة و تجديد البضائع حجة لهذه الرحلة. تعلم ماذا يعنى قضاء خمسة عشر يومًا فى «باريس» بالنسبة لتاجر كبير. هذا يدفع الدماء إلى الغليان. الجماهير و النساء والإثارة و المتعة كل ليلة. لا نرى أبدًا إلا راقصات بملابس خليعة، ممثلات عاريات، سيقانًا بيضاء، نهادًا ممتلئة، كل هذا جوارك لكن لا تستطيع لمس أى شىء. لا تستطيع الاستمتاع بهذه المتع إلا مرة أو مرتين فى الأماكن الداخلية. نشعر بوغزة فى القلب والروح متلهفة لتقبيل الشفاه.

كان «موران» يعانى من هذه الحالة عندما حصل على تذكرة القطار الفاخر من «لاروشال» فى الثامنة وأربعين دقيقة مساءً. راح يتجول بقلب مفعم بالأمل و الاضطراب فى الصالة الضخمة للسكة الحديد لـ «أورليانز» ثم وجد نفسه أمام امرأة صغيرة تودع سيدة عجوز. كانت ترفع طرحتها فهتف مبتهجًا: عجبًا، يا لها من رائعة.

بعد أن ودعت العجوز دخلت قاعة الانتظار وتبعها «موران» ثم راحت تتجول على الرصيف و «موران» يتبعها. ثم ركبت عربة القطار الفارغة و«موران» يتبعها دائمًا.

لم يكن هناك إلا عدد قليل فى القطار الفاخر. صفر القطار و تحرك وأصبحا منفردين فى العربة.

التهمها «موران» بنظراته. تبدو فى التاسعة عشر أو العشرين من العمر، شقراء، بدينة، جسورة. لفت حول ساقيها الغطاء وتمددت على المقعد لتنام.

تساءل «موران» فى نفسه: من تكون؟ تقافزت احتمالات كثيرة فى رأسه. قال فى نفسه: يقولون عن مغامرات كثيرة فى السكة الحديد. ربما تكون هذه مغامرتى الخاصة، من يدرى؟ المكان فاخر. لا ينقصنى إلا أن أكون جسورًا. ألم يقل «دانتون»: الجسارة، الجسارة، و دائمًا الجسارة؟ إن لم يكن «دانتون» فهو «ميرانو». ليس هذا مهمًا. آه لو نعلم، لو نعلم قراءة الأرواح. لو نعلم ذلك سنحصل دائمًا على فرص مناسبة رائعة. لا ينقصنى إلا إشارة منها.

هكذا توهم مغامرات تؤدى إلى النصر. تخيل أن يكون المدخل إليها بأسلوب الفرسان، يعرض عليها بعض الخدمات ثم محاورات حية تنتهى إلى... تنتهى إلى ما تفكر به.

لكن ما ينقصه دائمًا هو البداية، الحجة لبداية المناورة. يترقب اللحظة المناسبة، قلبه يخفق بشدة، يتأرجح بين اليأس والأمل.

مرت ساعات الليل والجميلة الصغيرة تغط فى نوم عميق بينما «موران» يكتم أنفاسه. أتى الصباح و أرسلت الشمس

أشعتها الأولى من الأفق البعيد لتسقط على وجه الجميلة النائمة.

استيقظت، جلست وراحت تتأمل الحقول. ابتسمت مشجعة مبتهجة. ارتجف «موران». بلا شك إنها الإشارة المباشرة التى يترقبها. اعتقد أن هذه الابتسامة تعنى: هل أنت أحمق، غبى، مغفل، لتبقي فوق مقعدك مثل الوتد منذ ليلة أمس؟ أنظر إلىّ، ألا تجدنى مثيرة؟ و أنت تجلس طوال الليل مع امرأة جميلة دون أن تستطيع قول شىء.

ابتسمت وهى ترقبه ثم بدأت فى الضحك. فقد «موران» عقله و هو يبحث عن الكلمة المناسبة، أى مجاملة، أية كلمة يقولها مهما كانت. لكنه لم يجد شيئًا. ثم انتبه و قرر المغامرة بكل شىء. تقدم نحوها و ضمها إلى صدره وقبلها.

قفزت و هى تطلب النجدة بصرخة مرعوبة. فتحت النافذة وهى تحرك يديها للخارج طالبة الغوث. حاولت القفز بينما «موران» يشعر بالتيه، خشى عليها من السقوط فأمسك بها من ثوبها و هو يقول:

- سيددتى... آه سيدتى.

بدأ القطار يخفف من سرعته و توقف. صعد اثنان من الموظفين بسبب استغاثتها، سقطت الصغيرة فى أحضانهما وهى تبكي وتقول: هذا الرجل يريد... يريد... ثم سقطت مغشيًا عليها.

حدث هذا فى محطة «موزيه». الجنود قبضوا عليه وأقاموا معه تحقيقًا سريعًا ثم سمحوا له بالانصراف وهو يتعهد أمام الجميع أن يكون حسن الخلق فى الأماكن العامة.

-٢-

فى هذه الأيام كنت رئيس تحرير الجريدة. كنت أرى «موران» كل ليلة فى مقهى التجار.

فى اليوم التالى لهذه المغامرة أتى يبحث عنى وهو لا يعلم ماذا يفعل. لم أخف عنه رأيى: أنت لست إلا خنزيرًا، لا يجب فعل ذلك أبدًا.

بكى، زوجته ضربته وبارت تجارته. الزبائن يهربون منه، الأصدقاء يبتعدون عنه. فى النهاية أشفقت عليه و استدعيت معاونى لطلب النصيحة. إنه شاب صغير لكنه عاقل رشيد.

نصحنا بمقابلة وكيل النيابة الذى كان صديقًا لى. طلبت من «موران» العودة إلى منزله وذهبت لمقابلة وكيل النيابة.

أعلم أن السيدة المنتهكة هى شابة صغيرة، الآنسة «هنريات بونال» التى حصلت من «باريس» على شهادة المعلمين، وهى بلا أب و بلا أم، تقضى إجازتها عند عمها أو عمتها، و هى جادة، بورجوازية صغيرة من «موزيه».

ما يضاعف صعوبة الموقف أن العم قدم شكوى. النائب العام مستعد لوقف القضية لو أن الشكوى سُحبت. هذا ما يجب أن نضعه فى الاعتبار.

ذهبت إلى «موران» لأجده طريح الفراش فى حالة سيئة. زوجته ضخمة قوية، ثرثارة، لا تهدأ أبدًا. قادتنى إلى الحجرة وهي تصرخ قائلة: هل أتيت لترى هذا الخنزير «موران»، حسنًا، هذا هو.

ثم وقفت ثابتة وهى تقبض على الفراش. شرحت له الموقف و رجانى أن أذهب إلى عائلتها. وافقت رغم أن الموقف حساس للغاية. الشيطان المسكين يكرر: أؤكد لك أننى لم أحتضنها أبدًا، أقسم لك.

قلت: هذا لا يعنى شيئًا، أنت لست إلا خنزيرًا. وأخذت منه ألف فرنك من أجل مصاريف القضية.

حتى لا أقوم بالمغامرة بمفردى فى منزل العائلة رجوت معاونى أن يأتى معى. وافق بشرط أن نعود فورًا لأنه مشغول بقضية هامة فى «لاروشال» فى مساء الغد.

بعد ساعتين كنا أمام منزل جميل فى الريف. فتاة جميلة صغيرة فتحت لنا. بالتأكيد هى نفسها. قلت بصوت منخفض لمعاونى: بدأت أعذر«موران».

العم، السيد «توفوليه» هو متدين سياسى مغرور. استقبلنا بحفاوة، شكرنا و هو يضغط على أيدينا و التقينا عنده اثنين من المحررين فى جريدته. معاونى همس فى أذنى: أعتقد أننا نستطيع حل مشكلة الخنزير «موران».

المشاكل ابتعدت وهاجمت بالأسئلة و الحقيقة. طرحت شبح العار، كنت أنوه أن هذا يثير الشبهات حول الفتاة الصغيرة لأن الناس لن تصدق أبدًا أنها مجرد قبلة برئية.

يبدو أن الرجل الطيب اقتنع لكنه لا يستطيع اتخاذ أى قرار بدون زوجته التى ستعود فى وقت متأخر من الليل. و فجأة صرخ وهو يقول بفخر: لدىّ فكرة جيدة، سنتناول العشاء معًا ونستكمل حوارنا عندما تعود زوجتى.

معاونى تردد قليلاً لكن لأنه يرغب فى الانتهاء من قضية الخنزير «موران» قبل الدعوة.

هب العم واقفًا متشيًا و نادى علي ابنة أخيه و اقترح علينا التجول فى أملاكه وهو يعلن: الليلة سيكون العمل شاقًا.

معاونى والعم انخرطا فى الحديث فى السياسة. بالنسبة لى وجدت نفسى أتبعهما بعدة خطوات للخلف بجوار الفتاة الصغيرة. إنها مثيرة بالفعل. مثيرة جدًا.

بحذر شديد بدأت الحديث معها عن مغامرتها للتقرب إليها. لكن يبدو أنها لا تشعر بالارتباك أبدًا. استعمت إلىّ كأنها تستمتع كثيرًا. قلت لها:

– لنفكر بالعقل آنستى فى كل المشاكل التى ستواجهك. يجب عليك المثول أمام المحكمة و مواجهة النظرات الماكرة. يجب عليك الحديث بكل صراحة أمام الجميع. يجب أن تقصى المشهد الحزين فى عربة القطار بدقة. لكن إذا أصبح الموضوع محصورًا بيننا من الممكن ألا نتحدث عن شىء أبدًا. لا داعى للدخول فى متاهات الشرطة.

ضحكت وهى تقول: معك حق فيما تقول، لكن ماذا تريد؟ كنت خائفة وعندما نخاف نفقد صوابنا. ندمت على صراخى

بعد أن استوعبت الموقف. لكنى ندمت متأخرًا. لا تنسى أن هذا الأحمق ألقى بنفسه علىّ مثل الوحش دون أن يقول أية كلمة. بدا لى كأنه مجنون. أنا لا أفهم ماذا يريد منى.

نظرت إلىّ بعمق دون أية رجفة و لا أى خجل. قلت فى نفسى: هذه الفتاة جسورة. لقد أخطأ الخنزير «موران» فى التقدير.

استدركت قائلاً: سنرى آنستى. لتعلمى أنه معذور لأنه من المستحيل أن يجد شخصًا نفسه أمام كل هذا الجمال دون أن يرغب فى احتضانه.

ضحكت بشدة حتى بدت كل أسنانها ثم قالت: يا سيدى، بين الرغبة والفعل يوجد مساحة للاحترام.

قولها كوميديًا وليس واضحًا تمامًا. سألتها فجأة: لنرى، إذا احتضنتك أنا الآن، ماذا ستفعلين؟

وقفت وهى تتأملنى من أعلى إلى أسفل ثم قالت بهدوء: آه! بالنسبة لك الوضع يختلف.

أعلم جيدًا أن الوضع يختلف طالما يطلقون علىّ فى كل الإمارة «لابارب» الطيب. كنت فى الثلاثين من العمر. سألتها: لماذا تقولين ذلك؟

هـزت كتفهـا و هـى تقـول: لأنـك لسـت أحمقًـا مثله. ثـم أضافت وهـى تغـض بصرهـا: ولسـت قبيحًا مثله.

قبـل أن تقـوم بأيـة حركـة لتتجنبنـى زرعـت قبلـه سـريعة علـى وجنتهـا. قفـزت لكـن متاخـرًا ثـم قالـت: حسـنًا، لسـت مقـززًا أبـداً، لكـن لا تعـود إلـى هـذه اللعبـة.

تصنعـت الخضـوع و قلـت همسًـا: اه! آنسـتى، بالنسـبة لـى أنـا لا يهمنـى المثـول أمـام المحكمـة لنفـس السـبب مثـل «مـوران».

سـألت بدورهـا: لماذا؟

قلـت و أنـا أنظـر فـى عمـق عينيهـا بجديـة: لأنـك أجمـل مخلوق علـى الأرض. بالنسـبة لـى سـأعتبر هـذا نصـرًا كبيـرًا أو مجـدًا عظيمًـا. لأن النـاس سـتقول بعـد رؤيتـك أن «لابـارب» لـم يكـن يـدرى مـا سـيحدث لـه لكنـه محظـوظ.

راحـت تضحـك مـن أعمـاق قلبهـا ثـم قالـت: أنـت خفيـف الظـل.

قبـل أن تكمـل كلمتهـا احتضنتهـا ورحـت أقبلهـا فـى كل مـكان أصـل إليـه، علـى شـعرهـا، علـى جبهتهـا، فـى عينيهـا، وفـى شـفتيها و علـى وجنتيهـا، كل رأسـها.

فـى النهايـة تسـاقطت حمـراء ومجروحـة ثـم قالـت: أنـت فـظ يـا سـيدى. أجبرتنـى علـى الاسـتماع إليـك.

تركت يدها لتتحرك بحرية ثم قلت: آسف. آسف آنستى. لقد جرحتك. كنت فظًا. لم أكن أرغب فى ذلك. لو تعلمين...

رحت أبحث عن عذر.

قالت بعد برهة: أنا لا أعلم شيئًا سيدى. وجدت العذر فصرخت: آنستى، أنا احبك منذ عام.

بدت عليها الدهشة و هى ترفع عينيها. استكملت: نعم آنستى، اسمعينى. لا أعرف «موران» و أسخر منه طبعًا. لا يهمنى إذا ذهب إلى السجن أو مثل أمام المحكمة. رأيتك هنا العام الماضى. كنت هناك أمام النافذة. شعرت برجفة فى قلبى ولم أستطع نسيانك. لا يهمنى إن كنت تصدقينى أو لا. لكننى أعشقك. وجهك يطاردنى. كنت أبحث عن طريق لرؤيتك. اتخذت من الحيوان «موران» حجة للتقرب منك. سامحينى. أرجوك سامحينى.

استنتجت الحقيقة من نظرات عينيى، وهى على وشك الابتسام همهمت: أنت تمزح.

رفعت يديى و قلت بجدية لدرجة أننى صدقت نفسى: أقسم لك أننى لا أكذب.

قالت ببساطة: وماذا بعد؟

كنا بمفردنا، معاونى والعم اختفيا فى الممرات ورحت أبوح لها بحبي بهدوء و أنا أقبل أصابعها. استمعت إلىّ كما لو كانت تسمع كلامًا ظريفًا وجديدًا، لكن دون أن تصدقنى.

اضطربت و أنا أفكر فيما أقوله. كنت شاحبًا و بهدوء استعدت تركيزى. همست لها فى أذنيها. بدت كأنها تموت أو حالمة. ثم التقت يدها بيدى فضغطت عليها. ضغطت على خصرها بيد مرتجفة، لم تتحرك أبدًا. ألهبت وجنتيها بشفتىّ ثم اتجهت إلى شفتيها. كانت قبلة طويلة، طويلة جدًا. و كانت ستطول أكثر لولا أننى سمعت صوتًا من الخلف على بعد خطوات.

فرت هاربة خلال الأشجار، التفت لأجد معاونى. كان يتوسط الطريق، و بدون أن يضحك قال: هكذا أنت تحاول حل مشكلة الخنزير «موران».

أجبت بغطرسة: أفعل ما أستطيعه يا عزيزى. والعم؟ ماذا فعلت معه؟ أنا تفاوضت مع ابنة أخيه.

أعلن معاونى: أنا كنت قليل الحظ مع العم. قبلت يديه لكى نعود للمنزل.

-٣-

أثناء العشاء فقدت صوابى. كنت أجلس بجوارها وكانت يداى تلتقى بيديها أسفل المنضدة. أقدامى تتلمس أقدامها. نظراتنا تلتقى ونتحاور.

بعد ذلك قمنا بجولة تحت ضوء القمر ورحت أتحدث إليها برفق و أبثها كل ما يعتمل فى صدرى. كنت أضمها إلىّ وأقبلها كثيرًا. ألثم شفتيها. أمامنا العم و معاونى يتحاوران وظلهما يتبعهما على رمال الطريق.

عدنا إلى المنزل واستقبلنا تلغراف يفيد أن العمة لن تعود إلا صباح اليوم التالى، فى السابعة عن طريق أول قطار.

قال العم: حسنًا، «هنريات» أوصلى الضيوف إلى حجريتهما.

صافحنا الرجل الطيب و صعدنا.

قادتنا إلى حجرة معاونى الذى همس فى أذنى: ليس هناك خطر لأنها لم تقدنا إلى حجرتك فى البداية.

ثم قادتنى إلى فراشى. ما أن أصبحنا بمفردنا حتى احتضنتها مرة أخرى ولم أسمح لها بالمقاومة، ثم فرت هاربة.

اتجهت إلى فراشى وأنا فى غاية الغيظ، عصبى جدًا، مرتبك جدًا. أدركت أننى لن أنام الليلة ثم سمعت طرقات خفيفة على الباب و سألت: من؟

جاء الصوت خافتًا: أنا.

ارتديت ملابسى بسرعة، فتحت الباب و دخلت وهى تقول: نسيت أن أسألك عما تريده فى الصباح، شوكولاته، شاى أو قهوة؟

اقتربت منها وتلمست جسدها وأنا أقول : آخذ .... آخذ .... ففرت هاربة برقة.

أصبحت وحيدًا خائفًا فى العتمة أبحث عن الكبريت دون جدوى. ثم رأيته أخيرًا و خرجت إلى الممر نصف مجنون حاملاً الشمعدان.

ماذا أفعل؟ فقدت عقلى تمامًا. يجب أن أعثر عليها. رحت أتقدم عدة خطوات دون أى تفكير ثم قلت فى نفسى: وإذا دخلت حجرة العم، ماذا أقول له؟ تسمرت فى مكانى عاجزًا عن التفكير بينما قلبى يخفق بشدة. ثم أتتنى الإجابة بعد بضع لحظات: سأقول له أننى أبحث عن حجرة معاونى للتحدث معه فى أمر هام.

رحت أتأمل الأبواب محاولاً استنتاج حجرتها، لكن كل الأبواب متشابهة. بالمصادفة أدرت أحد المفاتيح و دخلت فرأيت «هنريات» تجلس على فراشها تنظر إلىّ فى ذعر.

قفلت الترباس برفق و تقدمت على أطراف أصابعى. قلت لها: نسيت آنستى أن أطلب منك شىء ما لأقرأه.

ارتجفت لكنى عثرت بسرعة على الكتاب الذى أبحث عنه. من العنوان أدركت أنها أعظم الروايات و أجمل الأشعار.

أدرت صفحة و تركتنى أقرأ. تصفحنا عدة فصول حتى احترقت الشمعة عن آخرها. ثم عدت إلى حجرتى بخطوات خفيفة مثل الذئاب وشعرت بيد على ظهرى و صوت معاونى يهمس: ألم تحل مشكلة الخنزير «موران» حتى الآن؟

فى السابعة صباحًا أحضرت لى بنفسها فنجان الشوكولاتة. لم أتذوق من قبل ما هو أشهى من ذلك. شوكولاتة تجعل الرأس يدور ذات رائحة خاصة جميلة. لم أستطع تناول رشفة من فنجانها.

ما أن خرجت الفتاة الصغيرة حتى دخل معاونى. بدا لى عصبيًا قليلاً، يبدو أنه لم ينم جيدًا بالأمس. قال لى بلهجة عابسة: لو استمريت فى ذلك ستتعقد مشكلة الخنزير «موران».

فـى الثامنـة عـادت العمـة. المحـاورة كانـت قصيـرة. الكـرام يكظمـون غيظهـم. تركـت لهـم خمسـمائة فرنـك لتوزيعهـا علـى فقـراء البلـدة.

دعونـا لاسـتكمال اليـوم معهـم. اقترحـوا زيـارة الأطـلال خـارج المدينـة. «هنريـات» و هـى تسـير خلـف ظهـر أهلهـا أشـارت لـى برأسـها: نعـم، انتظـر. وافقـت لكـن معاونـى يريـد الانصـراف.

رجوتـه أن ينتظـر معـى قائـلاً: اصبـر صديقـى العزيـز، افعـل ذلـك مـن أجلـى. لكنـه رفـض قائـلاً: لـدىّ أعمـال كثيـرة أهـم مـن مشـكلة الخنزيـر «مـوران».

أصبحـت مضطـرًا للرحيـل. كانـت أصعـب لحظـات حياتـى. كنـت أحـاول ترتيـب أمـور كثيـرة معهـا.

فـى عربـة القطـار، بعـد الـوداع، قلـت لمعاونـى: أنـت لسـت إلا إنسـان فـظ. أجابنـى: صغيـرى، بـدأت تزعجنـى بشـدة.

كانـت الجمـوع فـى انتظارنـا فـى مكتـب «فانـال». صرخـوا منـذ أن لمحونـا: حسنًـا، هـل أنهيتـم مشـكلة الخنزيـر «مـوران»؟

كل البلـدة تضطـرب، معاونـى الـذى كان فـى حالـة سـيئة راح يلهـث فـى الطريـق وهـو يكتـم ضحكاتـه ويعلـن: نعـم، بفضـل «لابـارب».

ذهبنا إلى «موران».

كان يجلس على مقعده يعانى الحمى ويضعون كمادات المياه الباردة فوق رأسه، غارقًا فى الحزن، يسعل بدون توقف ولا نعلم من أين أتاه هذا المرض. زوجته ترقبه بعيون متنمرة وهى على وشك افتراسه.

منذ أن رآنا ارتجف من خصلة شعره حتى إخمص قدمه. قلت له: الموضوع انتهى، لكن لا تعاود ذلك.

هب واقفًا و قبل يدىّ كأننى أمير، بكى. فقد صوابه و قبل معاونى و قبل زوجته التى دفعته بغلظة إلى المقعد.

لكنه لم يتعلم من هذه الصدمة، سلوكه شديد الفظاظة. لا يطلقون عليه إلا اسم الخنزير «موران». وهذه الكلمة تخترقه مثل السهم فى كل مرة. عندما يصرخ أحد فى الشارع «خنزير» يلتفت إليه. أصدقاؤه يسخرون منه ويسألونه وهو يأكل لحم الخنزير: هل هذا جيد؟

مات بعد ذلك بعامين.

بالنسبة لى أنا، ذهبت فى مهمة لزيارة وكيل النيابة عام ١٨٧٥، السيد «بيلوند». استقبلتنى سيدة جميلة أنيقة. قالت لى:

- ألا تعرفنى؟

قلت: لا سيدتى.

قالت: أنا «هنريات بونال».

شعرت بالعرق يتصبب من وجهى بينما هى تضحك.

عندما انصرفت و تركتنى مع زوجها قال لى وهو يضغط على يديى:

– أتمنى رؤيتك منذ فترة طويلة. زوجتى حدثتنى كثيرًا عنك.. نعم، أعلم الموقف السخيف الذى تعرفه و قصت لى أنك كنت لبقًا و ذكيًا...

ثم همس بعد تردد:

- أعلم كل تفاصيل الخنزير «موران».

●●●

المجنونة

قال السيد «ماتيو»: «أبو فصاد» يذكرنى بالحكاية الحزينة التى حدثت أثناء الحرب.

تعلمون أن لى أملاكًا كثيرة فى مقاطعة «كورماى». كنت أعيش هناك أثناء هجوم الألمان.

كان لى جارة تعانى نوعًا من الجنون. فسد عقلها تحت هول الصدمات الحزينة. و هى فى الخامسة و العشرين من العمر فقدت خلال شهر واحد فقط والدها وزوجها وابنها حديث الولادة.

يبدو أن الموت عندما يدخل إلى المنزل يعتاده و يزوره كثيرًا. يبدو كأنه سعيد لمعرفة العنوان.

السيدة الصغيرة المسكينة صُعقت بالحزن الشديد. لم تغادر فراشها لمدة ستة أسابيع. اجتاحها اليأس من الأزمات العنيفة. لا تتحرك ولا تأكل إلا بعد معاناة، لا تحرك إلا عينيها فقط. عندما نحاول سحبها من الفراش تصرخ فى جزع كأننا نريد قتلها. نتركها فى فراشها ولا نرفع عنها الغطاء إلا من أجل الذهاب إلى الحمام أو تقليب الفراش.

كانت هناك خادمة عجوز تقوم برعايتها، تعاونها على شرب الماء من حين لآخر أو أكل قطعة صغيرة من اللحم البارد. لا نعلم ما يحدث داخل هذه الروح البائسة. لا نعلم شيئًا عما يدور فى ذهنها لأنها لا تتحدث أبدًا. هل تفكر فى الموت؟ هل تتجرع ذكرياتها المؤلمة؟ أم أن عقلها توقف تمامًا فأصبح مثل المياه الراكدة العفنة؟

ظلت على هذا الحال لمدة خمسة عشر عامًا ثم حدثت الحرب. هجم الألمان على منطقة «كورماى» فى أوائل شهر سبتمبر.

أتذكر ذلك جيدًا كأنه حدث بالأمس فقط . استولوا على البلدة تمامًا. أصابنا ذلك بالذهول. مازلت أتذكر أننى كنت أجلس على مقعدى ثابتًا متحسرًا على الأحوال بينما الجنود الألمان يرتعون فى كل مكان. كنت أتتبع تحركاتهم من نافذتى.

يجوسون فى الشوارع بحركاتهم البهلوانية. ثم قام القائد بتوزيع جنوده ليشاركوا الأهالي فى مساكنهم. أقام منهم سبعة عشر فى منزلى. أما جارتنا اقتحم دارها اثنا عشر جنديًا تحت قيادة رجل فظ عنيف مشاكس.

فـى الأيـام الأولـى مـر كل شـىء بهـدوء. أخبـروا القائـد أن سيدة المنـزل مريضـة ولا يجب أن يشـغل بالـه بهـا. لكنـه بعـد قليـل غضـب مـن السـيدة التـى لا يراهـا أبـدًا. سـأل عـن مرضهـا فقلنـا لـه أنهـا صدمـة نفسـية شـديدة جـدًا منـذ خمسـة عشـر عامًـا. لـم يصـدق ذلـك و اعتقـد أنهـا تتكبـر عليهـم، إنهـا لا تريـد رؤيـة الألمـان ولا التحـدث إليهـم ولا التعامـل معهـم أبـدًا. طلـب مقابلتهـا فسـمحنا لـه بدخـول حجرتهـا. قـال متحدثًـا بلغـة فرنسـية ركيكـة وصـوت أجـش:

– أرجوكـي سـيدتى. يجـب أن تنهضـى مـن الفـراش وتنزلـى إلـى الصالـة لاسـتقبال الجنـود.

رمتـه بنظـرات تائهـة خاليـة مـن أى شـعور ولـم تـرد. قـال القائـد:

– أنـا لا أطلـب منـك السـماح. إن لـم تقومـي بإرادتـك سـأجد طريقـة لأدفعـك إلـى القيـام بمفـردك.

لم تستجب السيدة بأية حركة، بقيت ثابته كأنها لا تراه.

التـزم القائـد بالصمـت برهـة لكـن فـى غيـظ وهـو يرميهـا بنظـرات الاحتقـار ثـم أضـاف:

- إن لم تنزلى غدًا...

ثم تركها و خرج.

فى اليوم التالى حاولت الخادمة العجوز معاونتها على تبديل ثيابها لكن المجنونة راحت تصرخ وتضربها بشدة. صعد القائد إلى الغرفة بسرعة و ركعت الخادمة تحت أقدامه و هى تقول:

- لا تريد يا سيدى. لا تريد. أرجو أن تعذرها. إنها يائسة جدًا.

رغم غضب القائد لم يستطع انتزاعها من الفراش بمعاونة رجاله. لكنه ضحك فجأة و ألقى أوامره للجنود بالألمانية.

بسرعة أتت القوات الخاصة بالحمالة الخاصة لرفع الجرحى، وضعوها على الحمالة بالقوة و قال القائد وهو يفرك يديه:

- سنرى كيف تبدلين ثيابك للخروج إلى نزهة صغيرة بمفردك.

اتجه الموكب نحو الغابة القريبة وعاد الجنود وحدهم بعد ساعتين.

لم نعد نرى المجنونة أبدًا. أين ذهبوا بها؟ لا نعلم شيئًا.

الثلوج تتساقط الآن طوال الليل والنهار حتى اختفى الوادى وتدثرت الغابة بالجليد و انتشرت الذئاب حول الأبواب.

اختفاء هذه السيدة يزعجنى. قمت بعدة جولات فى المناطق القريبة بعد أن أخذت التصريح من القوات الألمانية.

عاد الربيع و ابتعدت القوات الألمانية ومازال منزل جارتى خاويًا محاطًا بالأعشاب البرية.

الخادمة العجوز ماتت أثناء الشتاء ولا أحد يهتم بهذه الحكاية إلا أنا.

ما الذى حدث لها؟ هل هربت فى الغابة؟ هل وضعوها فى إحدى المستشفيات دون أن يعلموا عنها شيئًا؟ لا أجد أية إجابة عن ظنوني. لكن بمرور الوقت أصبح الحزن يخبو ويضعف فى قلبى.

فى الخريف التالى خرجت فى جولة إلى الغابة. اصطدت أربعة أو خمسة طيور لها مناقير طويلة. أثناء الصيد اختفت إحدى الطيور فى حفرة عميقة مليئة بالأعشاب. هبطت بحثًا عن الصيد فرأيت الطائر بجوار رأس ميت وتذكرت المجنونة. لم يدخل أحد الغابة منذ عدة شهور وأصبحت واثقًا تمامًا أنها رأس المجنونة.

لقد تركوها فى الفراش وسط الغابة و ظلت المسكينة ثابتة فى فراشها إلى أن توفت، ثم التهمتها الذئاب بينما راحت الطيور تغزل أعشاشها من خيوط الفراش. ورحت أصلى حتى يجنب الرب أبناءنا ويلات الحرب.

«بيـــارو»

السيده «لوفافر» أرملة من الريف، نصف فلاحة، ثرثارة، تبدو كأن فى داخلها روح فظة لكنها ليست طبيعتها، بل هى مرحة وساخرة. لديها خادمة ريفية بسيطة ونشيطة اسمها «روز».

السيدتان تعيشان فى منزل له أبواب خضراء يطل على الطريق الكبير في «نورماندى»، فى قلب مدينة «كو». يزرعان بعض الخضروات فى الحديقة الصغيرة أمام الدار.

فى ذات ليلة سرقوا منها اثنى عشرة بصلة. عندما لاحظت «روز» ذلك جرت لتخبر سيدتها التى هبطت بسرعة وهى ترتدى سترة من الصوف. إنها كارثة مرعبة. سرقوا السيدة «لوفافر». إذًا يوجد لصوص فى البلدة و قد يعودون فى أى وقت.

تتبعت السيدتان آثار الأقدام بدقة و استنتجا ما حدث: مروا من هنا، وضعوا أقدامهم على الجدار وقفزوا فوق السطح. أصابهما الذعر بالنسبة للمستقبل. كيف ننام بهدوء الآن؟

تردد الخبر فى كل مكان. أتى الجيران للمناقشة و التشاور وراحت السيدتان يشرحان لكل جار ملاحظتهما وأفكارهما. فلاح من القرية المجاروة قدم النصيحة: يجب أن يكون لديكما كلب.

بالفعل يجب أن يكون لديهما كلب ليستطيعا النوم أثناء الليل. ليس كلبًا ضخمًا بالضرورة. ماذا سيفعلان بالكلب الضخم؟ هذا يكلف كثيرًا لإطعامه. يكفى كلب صغير ينبح.

عندما رحل الجيران راحت السيدة «لوفافر» تفكر كثيرًا في فكرة الكلب. دارت رأسها فى جميع الاقتراحات، مشهد الطبق الذى يأكل منه يثير اشمئزازها. لا تحب الحيوانات كثيرًا لكنها تحتفظ فى جيبها ببعض المال لتقدمه للفقراء والمساكين فى البلدة كما أنها حريصة على التبرع للكنيسة كل أسبوع.

«روز» تحب الحيوانات وراحت تقنع سيدتها بالفكرة.

بدأت رحلة البحث لكن لا نجد إلا كلاب ضخمة شرهة. البقال لديه كلب صغير لكنه يطلب فرانكين. بعد مناقشة طويلة قالت السيدة «لوفافر» غاضبة: أنا لا أريد إلا أن أطعم الكلب و لا أريد شراءه.

الخباز الذى سمع بالحكاية أتى ذات صباح حاملاً كلبًا صغيرًا أصفر فى سيارته، سيقانه قصيرة جدًا، جسده نحيل جدًا بينما رأسه مثل الذئب و ذيله على شكل الزمار. صاحبه يريد التخلص منه. السيدة «لوفافر» وجدت الفرصة مناسبة، لن تدفع شيئًا. «روز» قبلت الكلب ثم سألت ما اسمه؟ أجاب الخباز: «بيارو».

وضعوا الكلب فى كرتونة الصابون القديمة وأتوا له بالمياه ثم ألقوا له بقطعة الخبز. أكل. بدأت السيدة «لوفافر» تشعر بالقلق ثم قالت: بعد أن يعتاد المكان سنتركه حرًا و سيعثر على الطعام فى طرقات البلدة.

بالفعل تركوا الكلب ليعيش حرًا، هكذا لا يشعر بالجوع أبدًا. أصبح لا ينبح إلا طلبًا للخروج للبحث عن طعامه، وفى هذه الحالة ينبح بشراسة.

أصبح الجميع يستطيع دخول الحديقة. يذهب «بيارو» إلى القادم و يداعبه فى صمت.

اعتادت السيدة «لوفافر» هذا الحيوان، ثم بدأت تحبه وتقدم له الطعام بيدها من حين لآخر. لكنها لم تفكر أبدًا فى الرخصة. البلدية طلبت ثمانية فرنكات لترخيص الكلب. فى هذه اللحظة كادت أن تسقط مغشيًا عليها.

على الفور قررت التخلص منه، لكن لا أحد يريده. كل الناس ترفضه حتى لو كانوا على بعد عشرة كيلومترات. يجب التخلص منه بطريقة أخرى. «يأكل التراب».

فى وسط الوادى الضيق نلاحظ وجود كوخ صغير، أو بالأحرى سقيفة من الأعشاب البرية. إنه المدخل ثم حفرة عميقة تصل إلى عشرين مترًا تحت سطح الأرض.

فى الأزمان الغابرة كانوا لا يذهبون إلى هذا المكان إلا مرة واحدة فى العام، أما بقية العام يستخدمونها مقبرة للكلاب المحكوم عليها بالإعدام. لذلك نسمع هناك صرخات الشكوى والجزع من الحيوانات المسكينة. يلقون هنا بكلاب الصيادين والرعاة بعد أن تشيخ. لذلك أصبحت الرائحة كريهة جدًا.

المأساة تحدث فى عمق الحفرة. عندما يلقى الأهالى بالحيوانات المُراد التخلص منها فى هذه الحفرة، يظل الحيوان حيًا لمدة عشرة أو اثنى عشر يومًا، يلتهم بقايا الحيوانات السابقة النافقة. أحيانًا يجتمع أكثر من حيوان حى فى وقت واحد. الأقوى و الأضخم يلتهم الأصغر و الأضعف.

فى البداية اتجهت السيدتان إلى الحفرة أثناء النهار لكن الموظف طلب منهما مبلغ من المال ليسمح لهما بالتخلص من «بيارو». السيدة «لوفافر» رفضت. فى القرية المجاورة يطلب الموظف نصف هذا المبلغ . لذلك اقترحت الخادمة أن يتوجها إلى الوادى أثناء الليل.

فى هذه الليلة منحا الكلب وجبة شهية من الخبز مع قطع الزبد. التهمها حتى آخر قطعة ثم حرك ذيله فى امتنان. احتضنته «روز» ثم اتجهتا إلى الحفرة بخطوات خفيفة مثل اللصوص. عند وصولهما ألقت السيدة «لوفافر» أذنيها فى

الحفـرة لتعـرف إن كان بداخلهـا حيـوان حـى وتأكـدت مـن خلـو الحفـرة. «بيـارو» سـيكون بمفـرده. بكت «روز» وهـى تحتضـن الكلـب ثـم ألقتـه فـى الحفـرة.

فـى البدايـة سـمعا أصواتًـا خفيفـة ثـم نبـاح حـاد مـن حيـوان جريـح ثـم صرخـات سـريعة مـن الألـم ثـم صرخـات يائسـة. ثـم ألقيـا نظـرة أخيـرة ليجـدا الكلـب ينبـح وهـو يحـاول الخـروج.

شـعرا بخـوف مجنـون غامـض ثـم الهـروب. كانـت «روز» تجـرى فـى المقدمـة و خلفهـا سـيدتها تصـرخ انتظرينـى.. انتظرينـى... وفـى المسـاء بـدأت الكوابيـس تطاردهمـا.

اسـتيقظت السـيدة «لوفافـر» فـى منتصـف الليـل. لاحظـت وجـود طبـق الكلـب خاويًـا. اشـتمت رائحتـه. سـمعت نباحـه. ثـم انتبهـت وتأكـدت مـن أنهـا مجـرد أوهـام وخيـالات وعـادت إلـى النـوم.

رأت نفسـها فـى طريـق طويـل لا نهايـه لـه. فـى منتصـف الطريـق رأت سـلة كبيـرة بـلا صاحـب. شـعرت بالخـوف الشـديد مـن هـذه السـلة. فتحـت السـلة و رأت «بيـارو» يتكـور بداخلهـا، لحـس يديهـا ولـم يتركهـا فجـرت تائهـة وهـى تحمـل الكلـب.

عندما أتى الفجر استيقظت مذعورة وجرت نحو الحفرة.

الكلب ينبح. مازال ينبح. كان ينبح طوال الليل. راحت تناديه و تدلله بكل الأسماء التي تعرفها و الكلب يجيبها بصوته الحزين. تريد أن تراه و وعدته أن تعمل على إسعاده حتى آخر لحظة فى حياته.

ذهبت إلى الموظف المختص بالمقبرة و قصت له حكايتها فقال لها: هل تريدين كلبك؟ هذا يكلفك أربعة فرنكات.

استشاطت فى غضب و ذهبت كل أحزانها فجأة، وعاد الموظف يقول: لابد أن أحضر الحبل و آلات خاصة، كما أن ابنى سيعمل معي، كل هذا من أجلك، هل أربعة فرنكات كثيرة؟

عادت إلى الخادمة و أخبرتها بما قاله موظف المقبرة. كانت السيدة «لوفافر» توافق على الدفع لكن «روز» قالت: المبلغ ضخم سيدتي. ثم أضافت: من الممكن أن نلقى له بالطعام داخل الحفرة. هكذا لن يموت.

سعدت السيدة «لوفافر» بهذه الفكرة. اتجهت مع خادمتها إلى الحفرة حامله قطعة كبيرة من الخبز مع الزبد. وراحت تمزق الخبز إلى قطع صغيرة وتلقيها لـ «بيارو». واستمر الحال هكذا عدة أيام. فى ذات صباح سمعتا صوتًا غريبًا داخل الحفرة يختلط مع صوت «بيارو». لقد تخلص أحدهم من كلبه بالأمس. والكلب الآخر ضخم. صرخت «روز»: «بيارو».

تجاوب معها «بيارو» فألقت له بقطع الخبز الصغيرة. لكن فى كل مرة تسمع ضجة تحدث فى الحفرة ثم تسمع صوت «بيارو» يبكى من الجوع و الألم. الكلب الأضخم يلتهم كل الطعام ويعض «بيارو» الصغير. قالت السيدة « لوفافر»:

- لا أستطيع إطعام كل الكلاب المُراد التخلص منها. يجب أن ننسى هذا الموضع تمامًا.

●●●

الرقصة

كل البؤس لا يثير أحزانى أبدًا. هكذا يقول «جون بريدال». كهل، قاده عقله إلى اعتناق مذهب الشكاك.

ثم يكمل: رأيت الحروب عن كثب، دهست الجثث دون أى شفقة. قسوة الطبيعة أو قسوة الإنسان تجعلنا نصرخ من الرعب أو من السخط، لكن لا تجعل قلبنا يرتجف هذه الرجفة التى تحدث عندما نرى أشياء بسيطة مؤلمة.

أكبر ألم نشعر به، بالتأكيد، هو فقدان الطفل بالنسبة لأمه، و فقدان الأم بالنسبة للإنسان. هذه الأشياء مؤسفة ومرعبة، تمزق القلب. لكننا نشفى من هذه الألام مثلما نشفى من كل الجروح الخطيرة. أى أن بعض المقابلات، بعض الأمور التى نلاحظها، بعض الأحزان الدفينة، بعض ألعاب القدر، كل هذه الأشياء تلهو بنا فتجعل العالم كله عبارة عن افكار مؤلمة وتفتح لنا أبواب الألم النفسى الغامض المعقد. كل هذا يجعل العالم يبدو وهميًا و يجب الفرار منه.

يوجد أمام عينىّ أشياء لا يلاحظها الآخرون أبدًا، لكنها متداخلة فى أعماقى مثل جروح خطيرة لا علاج لها.

مـن الممكـن جـدًا ألا تفهمـوا مـا أقصـد. لكنـى سـاقص لكـم قصـة حديـث لـى. قصـة قديمـة جـدًا لكنهـا قابعـة فـى أعماقـى كأنهـا حدثـت بالأمـس.

اليـوم أنـا فـى الخمسـين مـن العمـر. حدثت هـذه القصة عندما كنـت صغيـرًا، كنـت أدرس القانـون. كنـت حزينًـا حالمًـا، مشـغولاً بالفلسـفة السـوداوية. لـم أكن أحـب القهـوة الطازجـة ولا الأصدقـاء المازحـين و لا الفتيـات الغبيـات. أسـتيقظ مبكـرًا. أفضـل متعـة التجـول بمفـردى فـى الثامنـة صباحًـا وسـط مشـاتل «لوكسـمبورج».

أنتـم لا تعلمـون مـا هـى هـذه المشـاتل. إنها مثـل حديقة مهجورة مـن القـرن الماضـى. حديقـة جميلـة مثـل ابتسـامة هادئـة لرجـل عجـوز. الأشـجار الضخمـة تحـف الطرقـات الصغيـرة الضيقـة، فتتجـول بهـدوء بـين جـدران مـن أوراق الشـجر النظيفـة. المقصـات الضخمـة للبسـتانى تقلـم هـذه الأشـجار بعنايـة وباسـتمرار. نجـد الـورود الجميلـة متسـاقطة علـى الأرضيـة، فـروع الأشـجار تتشـابك وتشـكل بعـض الظـلال السـاحرة.

فـى كل أركان هـذه الحديقـة الجميلـة نجـد مسـاكن النحـل، مسـاكنهم مـن القـش داخـل غصـون الأشـجار ومفتوحـة لضـوء الشـمس. نجـد فـى كل الطرقـات الحشـرات الملونـه والذهبيـة. إنهـا مملكـة حقيقيـة. مملكـة تعيـش فـى هـذا المـكان الرائـع.

آتى إلى هنا كل صباح تقريبًا. أجلس على مقعد حجرى وأقرأ. أحيانًا أترك كتابى على سيقانى وأحلم، أحيانًا أستمتع بصوت «باريس» الحى. أستمتع بهذا الجو البهيج.

لكنى لاحظت أننى لست الوحيد فى المكان. من بين الأشجار لمحت عجوزًا نحيلاً. يرتدى حذاءً بكعب معدنى، بنطلونًا غريبًا، معطفًا نسائيًا إسبانيًا و قطعة من الدانتيل بدلاً من رباط العنق و قبعة فى غاية الغرابة رمادية اللون تتزين حوافها بالريش. كأنه من المختلين عقليًا.

كان نحيفًا جدًا، ضعيفًا جدًا، مكفهرًا ويبتسم. عيناه البراقة تنبض بالحياة تحت حاجبيه الكثيفتين. يمسك دائمًا بعصا رائعة ذهبية من خشب التفاح. لابد أن هذه العصا تمثل ذكرى جميلة بالنسبة له.

هذا الرجل أذهلنى كثيرًا، أثار فضولى فرحت أتتبعه من خلف فروع الأشجار دون أن يرانى.

فى ذات صباح، حينما كان يعتقد أنه وحيدًا فى المكان، قام بحركات خاصة. فى البداية بضعة قفزات ثم انحناءات ثم يرفرف بسيقانه النحيفة ثم راح يدور حول نفسه ويقفز بطريقة مضحكة. يبتسم كما لو كان أمامه الجمهور. يرقص بخطوات مترددة متعثرة.

حركاته أدهشتنى و رحت أتساءل من المجنون؟ أنا أم هو؟ لكنه توقف فجأة وتقدم بخطوات متأنقة مثل الممثلين على المسرح و انحنى وهو يبتسم و يوزع القبلات بطريقة كوميديه على الأشجار. ثم أكمل نزهته اليومية.

منذ هذا اليوم أصبحت أراقبه كل صباح وهو يعيد هذه الحركات. ثم هاجمتنى رغبة قوية فى الحديث معه. ألقيت التحية ثم قلت:

- الجو رائع اليوم سيدى.

انحنى و هو يقول:

– نعم سيدى، اليوم رائع مثل الأيام الغابرة.

خلال ثمانية أيام أصبحنا صديقين. علمت حكايته. كان أستاذًا للرقص فى الأوبرا فى عهد «لويس الخامس عشر». العصا الجميلة ما هى إلا هدية من «كليرمو» وعندما نتحدث معه عن الرقص لا يتوقف عن الكلام أبدًا.

فى ذات يوم أكد لى:

– زوجتي هى «كاستربيس». سأعرفك بها إن أردت ذلك إلا أنها لا تأتى إلا متأخرًا. هذه الحديقة، كما ترى، هى متعتنا وحياتنا. إنها كل ما تبقى لنا من الماضى. يبدو لنا أننا سنموت إن لم

نـأت إلـى هنـا. إنهـا أفـكار قديمـة، أليـس كذلـك؟ أعتقـد أن الهـواء هنـا لـم يفقـد مذاقـه منـذ أيـام الصبـا. انـا و زوجتـي نمضـى هنـا كل الأمسـيات. لكـن أنـا آتـى مـن الصبـاح لأننـي أسـتيقظ مبكـرًا.

مـا أن انتهيـت مـن وجبـة الغـذاء حتـي عـدت إلـى «لوكسـمبورج» ورأيـت صديقـى وهـو يتأبـط ذراع سـيدة عجـوز جـدًا ترتـدى الملابـس السـوداء. عرفنـي بهـا. إنهـا «كاسـتريس»، الراقصـة المفضلـة للأمـراء والملـوك، محبوبـة القـرن الماضـى حـين كان الجـو مفعمًـا بالحـب.

جلسـنا على المقعد الحجرى. كنا فى شـهر مايو. رائحة الورود تزكـم الأنـوف، أشـعة الشـمس تتسـاقط مـن بـين فـروع الأشـجار. الثوب الأسـود للسـيدة يبـدو رائعًـا تحـت ضـوء الشـمس. الحديقـة خاويـة و لا نسـمع إلا تغريـد الطيـور. قلـت للراقـص العجـوز:

- ما هـى حكاية هذه الرقصة؟

ارتجف العجوز وقال:

– إنهـا ملكـة الرقصـات ورقصـة الملـكات. هـل تفهمنـى؟ منـذ أن اختفـى الملـوك اختفـت هـذه الرقصـة.

ثـم راح يشـرح كل خطـوات الرقصـة بالتفصيـل ولـم أفهـم منـه شـيئًا. ثـم التفـت إلـى زوجتـه وقـال:

– سيدتى، هل تسمحين بتقديم الرقصة إلى هذا السيد؟

دارت بعينيها المضطربة فى كل الاتجاهات ثم هبت واقفة دون أية كلمة.

ثم رأيت شيئًا رائعًا. قدما الرقصة بكل حيوية ورشاقة مثل دميتين قديمتين فى آلة عتيقة.

اضطرب قلبى بشدة و داهمتنى الأفكار السوداوية اليائسة. إنهما مثل القطعة الفنية الجميلة الآتية من القرن الماضى. كان لدى رغبة فى الضحك و رغبة أخرى جارفة فى البكاء.

ثم توقفا عن الرقص و انحنيا فى أدب لتقديم التحية.

رحلت بعد ثلاثة أيام من هذه الإمارة و لم أرهما أبدًا بعد ذلك. عندما عدت من «باريس» بعد عامين، كانت البلدية قد دمرت منطقة المشاتل. ما الذى حدث لهما بعد اختفاء حديقتهما الغالية بزهورها الجميلة وهواءها المنعش؟ هل ماتا؟ هل ذهبا يتجولان فى الطرق الحديثة الخالية من أى أمل؟ هل يرقصان أمام الجمهور فى الشوارع؟

هذه الذكرى تؤلمنى كأنها جرح عميق داخلى. يبدو أن الأمر مضحك، أليس كذلك؟

●●●

الخـوف

صعدنا فوق الجسر بعد العشاء. يتمدد أمامنا البحر المتوسط بدون أية نسمة هواء ولا أية موجة خفيفة. السفينة الصغيرة تنزلق وهى تبعث بالدخان الذى يتشكل على هيئة ثعبان ضخم إلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم. خلفنا المياه البيضاء تضطرب من حركة السفينة بينما القمر يلقى بأشعته الصافية.

كنا ستة أو ثمانية، صامتين مبهورين، تتجه أنظارنا نحو أفريقيا البعيدة التى نرغب فى الذهاب إليها. بدأ القبطان الذى يدخن سيجارًا ضخمًا بالحديث فقال:

– نعم، شعرت بالخوف الشديد. سفينتى توقفت لمدة ست ساعات تعانى من الصخرة التى اصطدمنا بها فى عرض البحر. من حسن الحظ أننا التقينا فى المساء الباخرة الإنجليزية التى لمحتنا. كان بينهم رجل ضخم له وجه ملتهب بأشعة الشمس، جاد صارم، من ضمن هؤلاء الذين يبدو على هيأتهم أنهم مروا ببلاد كثيرة بعيدة مجهولة وسط المخاطر المتعاقبة. الخبرات الطويلة التي اكتسبها فى أسفاره واضحة فى نظرات عينيه.

كان من بين المستمعين رجل صامت طوال الرحلة ثم قال لأول مرة:

– قلت سيدى القبطان أنك شعرت بالخوف لكنى لا أصدق ذلك. لقد أخطأت فى التعبير أو أخطأت فى تفسير مشاعرك. الرجل النشيط لا يشعر بالخوف فى مواجهة الأخطار. قد يكون اضطراب لكن الخوف شىء آخر.

قال القبطان:

- قلت لك شعرت بخوف حقيقى.

قال المسافر الضخم بهدوء:

– اسمح لى أن أعبر لك عن رأيى. الخوف (و أقوى الرجال يشعرون بالخوف) هو شىء مرعب، إحساس مروع مثل تمزق الروح أو توقف العقل والقلب فتشعر بالضياع. لكن هذا لا يحدث عندما يكون الإنسان شجاعًا. لا نشعر بالخوف أمام المواجهات ولا أمام الموت ولا أمام أية مشاكل مهما كانت. لا نشعر بالخوف إلا عند مواجهة ظواهر غامضة مجهولة. هذا هو الخوف الحقيقى. لا يشعر بهذا إلا الرجل الذى يعتقد فى وجود الأشباح ويراها أثناء الليل.

أنا شعرت بالخوف أثناء النهار منذ عشر سنوات تقريبًا. وشعرت به مرة أخرى فى الشتاء الماضى فى إحدى ليال ديسمبر. رغم أننى واجهت مشاكل كثيرة مميتة. فى إحدى المرات تركنى اللصوص لأموت وحيدًا فى الطريق. حكموا على بالاعدام فى أمريكا. و مرة أخرى ألقوا بى فى المحيط الهندى. فى كل مرة كنت أعتقد أنها نهايتى، أفقد صوابى وأى أمل فى النجاة لكن ليس هذا هو الخوف.

شعرت بالخوف فى أفريقيا، ابنة الشمس التى تبدد الضباب. لاحظوا ذلك جيدًا يا سادة. عند الشرقيين الحياة لا تعني شيئًا. نناقش هذه الأمور باستمرار. الليال صافية وخالية من أية أساطير والأرواح أيضًا خالية من أية أفكار غامضة مثل تلك التى تجهد العقل فى البلاد الباردة. فى الشرق قد نعلم الذعر ونجهل الخوف.

هذا هو ما حدث لى فى أرض أفريقيا.

كنت أعبر الكثبان الرملية فى جنوب «كارجلا». إنها من أغرب بلدان العالم. تعلمون الرمال على شواطئ المحيط؟ حسنا، تخيلوا المحيط نفسه تحول إلى رمال وسط عاصفة هوجاء. تخيلوا عاصفة صامتة من الأمواج الثابتة من الرمال الصفراء. الأمواج ضخمة مثل الجبال، موجات غير متساوية

ترتفع مثل الشلالات، بل أكثر من ذلك. فى هذا البحر المرعب، الصامت الثابت، تكون أشعة الشمس حارقة ومباشرة. يجب تسلق هذه الموجات الذهبية، ما أن نهبط حتى نتسلق موجة أخرى. هكذا بدون أية لحظة لالتقاط الأنفاس ودون أن يكون حولك أية ظلال، الأحصنة تنغرس فى الرمال الناعمة حتى ركبتها وهى تجاهد لاختراق الوديان.

كنا صديقين و معنا ثمانية فرسان وأربعة جمال مع أربعة رجال لرعاية الجمال. لا نتحدث مع بعضنا أبدًا، نعانى الإرهاق و الحرارة الشديدة. أفواهنا جافة من العطش مثل هذه الصحراء القاسية. فجأة صرخ أحد الرجال بطريقة غريبة وتوقف الجميع. بقينا ثابتين مذهولين بهذه الظاهرة المعروفة من المسافرين فى هذه البلاد الضائعة.

سمعنا بالقرب منا، من اتجاه غير محدد، دقات الطبول. طبول غامضة من الرمال الناعمة. أحيانًا تكون الدقات قوية جدًا وأحيانًا ضعيفة ثم تتوقف بضع لحظات وتعود مرة أخرى.

العرب الذين معنا راحوا يتبادلون النظرات فى رعب. قال أحدهم: الموت حولنا. وفجأة سقط صديقى الذى كنت أعتبره مثل أخى من فوق الحصان بضربة الشمس.

حاولت إنقاذ صديقى لمدة ساعتين دون جدوى. الطبول مازالت تقرع بصورة مرعبة غامضة، تصم أذنىّ. شعرت بالخوف يتسلل فى كل جسدى حتى وصل إلى العظم، خوف حقيقى وأنا أقف أمام جثة شخص عزيز. دفنا صديقى فى حفرة غامضة بين أربعة تلال، تحت أشعة الشمس الحارقة، بعيدًا عن بلادنا فرنسا حوالى مائتى فرسخ. تركناه وسط دقات الطبول السريعة.

فى هذا اليوم عرفت معنى كلمة الخوف و شعرت بمثل هذا الشعور مرة أخرى...

اندفع القبطان يسأل:

- عفوا سيدى، لكن هذه الطبول، ما حكايتها؟

قال المسافر:

– لا أعلم عنها شيئًا، ولا أحد يعرف تفسيرًا لذلك. الضباط يعرفون هذا الصوت الغامض. يقولون إنه تردد لصدى الصوت الذى يتضخم عبر الكثبان الرملية. يقولون أن الصوت يأتى من اصطدام حصوات الرمل بالنباتات البرية الجافة، لأنهم يلاحظون أن هذه الظاهرة لا تحدث إلا فى الوديان الملتهبة بالشمس. إذًا هذه الطبول هى نوع من السراب. هذا هو التفسير الوحيد ولم أعلم ذلك إلا فيما بعد.

الآن سأقص لكم الحكاية الأخرى.

حدثت فى الشتاء الماضى، في غابة تقع فى شمال شرق فرنسا. هبط الليل قبل موعده بساعتين لأن السماء مبلدة بالغيوم. كان مرشدى القروى يسير بجوارى عبر طريق ضيق جدًا وسط الأشجار بينما الرياح تزمجر. من بين قمم الأشجار رأيت السحب تتحرك بسرعة كأنها تجرى هربًا من الأهوال. من حين لآخر، بتأثير من الهواء العاصف تنحنى الأشجار فى اتجاه واحد. البرد يخترقنى رغم خطواتى السريعة وملابسى الثقيلة.

يجب تناول العشاء و النوم فى بيت حارس الغابة الذى يسكن بالقرب من هنا. كنت أذهب إلى هناك للصيد.

مرشدى يرفع عينيه إلى السماء من حين لآخر ويغمغم: الجو حزين جدًا. ثم حدثنى عن سكان المنزل الذى سنصل إليه. الأب قتل صيادًا مخالفًا منذ عامين. منذ هذه الحادثة أصبح كئيبًا مثقلاً بهذه الذكرى. ولداه متزوجان ويقيمان معه.

الظلام كان كثيفًا. لا أرى شيئًا أمامى ولا حولي بينما كل فروع الأشجار ترتجف من الرياح الشديدة. أخيرًا لمحت الضوء ودق المرشد على الباب ثم سمعنا صوتًا يرتعش يسأل: من الطارق؟ أفصح المرشد عن نفسه ودخلنا. رأيت مشهدًا لا أستطيع نسيانه أبدًا.

رجل عجوز أشيب الشعر نظراته مجنونة، يحمل البندقية المشحونة بالذخيرة. انتظرنا واقفين وسط المطبخ بينما كان هناك شابان طافحان بالصحة يتسلح كل منهما بالبلطة، يحرسان الباب. لمحت فى الركن المعتم سيدتين يجلسان على ركبتيهما، وجهيهما نحو الحائط.

بدأوا فى تفسير الموقف. العجوز وضع سلاحه بجوار الحائط و أمر بإعداد حجرتى. ولأن السيدتين لم تتحركا قال لى فجأة:

– كما تعلم يا سيدى قتلت رجلاً منذ عامين فى مثل هذه الليلة. فى العام التالى أتى هنا ونادانى. والليلة أنا أسمعه.

ثم أضاف بلهجة جعلتنى أضحك:

- لهذا لا نشعر بالراحة.

عبرت له بقدر استطاعتى عن سعادتى للوصول هنا فى الليلة المناسبة لمعاينة هذا المشهد المرعب. ورحت أقص عليهم النوادر محاولاً تهدئة الجميع.

كان هناك كلب بالقرب من الشعلة. أعمى تقريبًا و له شارب كثيف. كلب يشبه بعض الناس الذين نعرفهم. ينام فوق سيقانه.

فـى الخـارج، العاصفـة تضـرب البيـت الصغيـر. فـى البـاب فتحـة صغيـرة لمراقبـة مـا بالخـارج. مـن هـذه الفتحة رأيت الأشـجار تتـلألأ تحـت ضـوء البـرق.

رغـم كل محاولاتـى لكنـى لاحظـت الرعـب الشـديد الـذى يصيـب هـؤلاء النـاس. كل الآذان تتنصـت عمـا يحـدث مـن بعيـد. كنـت سـأطلب منهـم الذهـاب للنـوم لكـن الحـارس العجـوز قفـز فجـأة مـن مقعـده. قبـض علـى سـلاحه و هـو يقـول بصـوت مفـزوع: إنـه هـو، إنـه هـو، أسـمعه.

سـقطت السـيدتان راكعتـين فـى الركـن وهمـا يخفيـان وجهيهما وقبـض الولـدان علـى البلطـة. حاولـت مـرة أخـرى تهدئتهـم لكـن الكلـب اسـتيقظ فجـأة. رفـع رأسـه وراح يرقـب النيـران بعينيـه الملتهبـه ثـم راح ينبـح فـى فـزع حتـى جعـل المسـافرين يرتجفـون فـى كل البلـدة. كل الأنظـار اتجهـت إليـه وراح الكلـب يوجـه نباحـه نحـو شـىء مـا خفـى، شـىء مجهـول، مرعـب بالتأكيـد لأن كل شـعره انتفـض فجـأة. الحـارس الشـاحب صـرخ: إنـه يشـعر بـه، يشـعر بـه، قتلتـه فـى هـذا المـكان. وراحـت السـيدتان تصرخـان مـع الكلـب.

سـرت الرعشـة فـى أكتافـى رغمًـا عنـى. مشـهد الكلـب فـى هـذا المـكان فـى هـذه السـاعة وسـط أنـاس ضائعـين، كل هـذا أثـار ذعـرى.

ظل الكلب ينبح لمدة ساعة دون أن يتحرك، يصرخ كأنه يعانى كابوسًا مزعجًا و تغلغل الخوف فى أعماقى. الخوف من ماذا؟ لا أعرف. إنه الخوف.

وقفنا ضائعين ثابتين فى انتظار حادثة مروعة، الآذان صاغية، القلوب مضطربة، نرتجف لأضعف صوت وراح الكلب يدور فى المكان وهو يتشمم الجدران ويرتجف. هذا الحيوان أصابنا بالجنون. مرشدى فقد صوابه وقبض على الكلب بكل غلظة وفتح الباب وألقاه إلي الخارج.

صمت الكلب و سقطنا فى صمت مرعب أكثر من ذى قبل. ارتجفنا جميعًا، شعرنا بكائن ما يتمسح على الجدران من الخارج، ثم اتجه إلى الباب و بدا كأنه يريد فتحه بيد مرتجفة. ثم ظهرت فجأة رأس من خلال النافذة. رأس بيضاء ونظرات براقة مشتعلة. يخرج من فمه صوت مفعم بالشكوى والألم.

فجأة أتت الصرخة مدوية من المطبخ. الحارس العجوز أطلق النيران بينما الولدان هبطا بالبلطة على المنضدة.

أقسم لكم أننى لم أسمع فى حياتى مثل فرقعة هذه الطلقة. شعرت بألم شديد فى قلبى وروحى وجسدى. كنت على وشك الموت من الرعب.

بقينا حتى الفجر عاجزين عن الحركة، عن الكلام. مذهولين.

لم يستطع أى منا الخروج من المنزل إلا بعد أن رأينا أشعة الشمس من النافذة. رأينا على مدخل الباب الكلب مصابًا فى وجهه بالطلق النارى.

فى هذه الليلة لم أواجه أية مخاطر لكنى شعرت بالخوف الحقيقى.

●●●

مزحـــة النـورمـاندى

الموكب يتقدم على الطريق المحفوف بالأشجار الضخمة بين الحقول. العروسان فى المقدمة ثم الأهل ثم المدعوون ثم فقراء البلدة ثم المتطفلون الذين يلتفون حول الموكب مثل الذباب المتساقط. بعض المتطفلين يدخل بين المدعويين والبعض الآخر يتسلق الأشجار ليرى أفضل.

العريس شاب وسيم، «جون باتى»، أغنى إقطاعى فى البلاد بالإضافة إلى أنه صياد فظ، لا يستطيع كبت غريزة الصيد أبدًا. ينفق الكثير على نفسه و كلابه وحراسته وأملاكه وسلاحه.

العروس هى «روزارى روسال»، تقدم للزواج بها الكثير من شباب المنطقة لأنها جذابة من ناحية ولأن أهلها الأثرياء سيدفعون مبلغًا كبيرًا للعريس. لكنها اختارت «باتى»، ربما لأنه يروق لها أكثر من الآخرين لكن من المؤكد لأنه الأغنى.

بينما الموكب يدور حول منزل الزوجية دوت الأربعون طلقة من الحراس المندسين بين الأشجار. دوى الطلقات أثار البهجة فى النفوس وراح الرجال يرتجفون من النشوة وهم يرتدون الثياب الأنيقة. أما «باتى» ترك عروسه و قفز فوق إحدى الأشجار وأطلق النيران ثم عاد قفزًا مثل كتكوت صغير.

استكمل الموكب طريقه تحت أشجار التفاح المثقلة بالفاكهة بينما كانت الأبقار ترعى خلف الأشجار وهى ترقب الموكب.

اكتست وجوه الرجال بالصرامة وهم يقتربون من الوليمة. الأثرياء منهم يرتدون قبعات مرتفعة من الحرير البراق والآخرون يرتدون ملابسًا قديمة طويلة من الصوف تشبه جلد الخلدة والأكثر تواضعًا يرتدى طاقية بسيطة.

كل النساء يضعن الشال على الأكتاف ويضمونه بأيديهن بطريقة استعراضية. الشال من اللون الأحمر بدرجاته المختلفة، ألوانه الزاهية تثير غيرة الكتاكيت وعصافير الكناريا وكل الطيور الملونة الأخرى.

الأخضر بكل درجاته من الأشجار و الأعشاب فى الحقول يمتزج مع هذا اللون القرمزى و الكل يتلألأ تحت ضياء الشمس ليرهق العيون.

بدت الدار الكبيرة خلف أشجار التفاح. الدخان يتصاعد من الأبواب و النوافذ يسرى فى المكان كله. الرائحة تنم عن أطعمة شهية فاخرة.

اتخذ الموكب الشكل الثعبانى عندما وصل إلى الفناء. الأوائل دخلوا الدار والباقون فى الحديقة والآخرون على

البوابـة. الحفـر الصغيـرة حـول المـكان امتـلأت الآن بالصعاليـك والفقـراء المتطفلـين. الطلقـات الناريـة لا تهـدأ أبـدًا. الفرقعـات تأتـى مـن كل مـكان فينتشـر تـراب البـارود الأبيـض.

يقـف النسـاء بجـوار البـاب وهـن يضربـن ثيابهـن لتنظيفهـا مـن تـراب البـارود، ينظفـن الشـرائط المحاطـة بالقبعـات ثـم يعدلـن مـن هندامهـن ويعـدن الشـال علـى الأكتـاف، لا يدخلـن مـن البـاب إلا بعـد أن يتأكـدن تمامًـا مـن زينتهـن.

مُـدت المائـدة التـى تتسـع لمائـة شـخص فـى المطبـخ الكبيـر. بـدأت الوليمـة فـى الثانيـة ظهـرًا و ظـل النـاس يلوكـون الطعـام حتـى الثامنـة مسـاءً. بـدأ الرجـال يفكـون أزرار القميـص بعـد أن احمـرت وجوههـم وانتفخـت. خمـر التفـاح الأخضـر يتـلألأ، منعـش، ذهبـي اللـون فـى الكاسـات و بجـواره النبيـذ الفـاتح و الداكـن فـى لـون الـدم.

علـى الطاولـة توجـد حفـرة صغيـرة خلـف كل طبـق، حسـب العـادة فـى النورمانـدى، فـى كل حفـرة نجـد زجاجـة الخمـر الـذى يلهـب الجسـد و يثيـر الـرؤوس.

مـن حـين لآخـر يخـرج أحـد المدعويـن منتفخًـا مثـل البرميـل ليتقيـأ خلـف الأشـجار القريبـة ثـم يعـود وهـو يشـعر بالجـوع أكثـر مـن ذى قبـل. الفلاحـات انتفخـن مثـل البالونـات لكـن بقـين علـى المنضـدة فـى حـرص وخجـل. ثـم قفـزت إحداهـن لتتقيـأ وجـرى

خلفها بقية النساء. عدن أكثر بهجة يضحكن. وبدأت النكات الخليعة. كل النكات تتحدث عن العلاقة الزوجية وخاصة فى ليلة الدخلة. نكات قديمة تتردد من مئات السنين وتُقال دائمًا فى نفس المناسبة، ورغم ذلك الكل يضحك فى جنون.

هب رجل عجوز رمادى الشعر وقال: المتجهون إلى البيت يتفضلون بالدخول. ودبت صيحات البهجة.

بدأ الخدم يلملمون المائدة و فجأة صرخ أحد المدعوين:

– الصيادون المخالفون يستفيدون من هذه الليلة تحت ضوء القمر. قل لى يا «جون»، أليس هذا هو القمر الذى تترقبه؟

العريس التفت و قال:

- تقول من؟ الصيادون المخالفون؟

قال العجوز و هو يضحك:

– نعم، يستطيعون الحضور إلى هنا الليلة و ممارسة الصيد فى مزرعتك. لن تترك مهمتك الليلة من أجلهم.

انفجر كل المدعوين من الضحك حتى انفجرت الأرض واهتز الزجاج. لكن العريس استشاط غضبًا من فكرة أن يستغل المخالفون هذه المناسبة و يصطادون فى مزرعته، فقال بوحشية:

- لن يستطيع أحد فعل ذلك.

انهمرت الانتقادات و الكلمات الخليعة فى كل اتجاه حتى أن العروس ارتبكت و احمر وجهها خجلاً.

بعد أن شربوا كثيرًا بدأوا فى الانسحاب الواحد تلو الآخر إلى غرف النوم. العروسان اتجها إلى حجرتهما الموجودة فى الطابق الأرضى مثل كل حجرات النوم فى الريف. لأن الحرارة كانت مرتفعة قليلاً فتحا النافذة وأغلقا الستائر.

كانت هناك لمبة قديمة، مهداه من والد العروس، مشتعلة فوق المنضدة و الفراش جاهز لاستقبال العروسين اللذين لم يحتضن أحدهما الآخر طوال حفل الزواج البورجوازى.

بدأت العروس فى رفع زينتها و خلعت حذاءها بينما «جون» يدخن السيجار ويرقبها بنظرات ملتهبة حانية. يعترف فى داخله أنه لا يحبها لكنه هب واقفًا فجأة واتخذ هيئة صارمة مثل الرجل الذى يهتم بعمله و خلع ثيابه.

كانت العروس قد انتهت من خلع حذائها وبدأت الآن فى خلع الجوارب ثم قالت بصوت طفولى: اذهب خلف الستائر حتى أذهب إلى الفراش.

اعترض فى لباقة ثم اختفى خلف الستائر وهو يطل بوجهه فى فضول بينما العروس تضحك و هى تحاول الاختفاء من عينيه. انسابت آخر قطعة من ملابسها حول ساقها وسقطت على الأرض وبدت متلألئة عارية وهى بداخل ملابس النوم الشفافة واتجهت إلى الفراش.

تقدم وهو يخلع البنطلون واستلقى بجوار عروسه، قبلها فى أذنيها، وفى هذه اللحظة سمع الطلق النارى يأتى من بعيد، من الغابة، هذا ما بدا له.

هب واقفًا و اتجه نحو النافذة وأزاح الستائر. القمر يرسل أشعته الصفراء على الفناء. أشجار التفاح تلقى بظلالها وتبدو القرية من بعيد حيث مساكن الفلاحين.

ألقى بجسده خارج النافذة يرقب المكان. شعر بذراعين يلتفان حول عنقه. عروسه تداعبه و تجذبه للخلف وهى تغمغم: لا تشغل بالك.

عادا إلى الفراش و هو يحملها بذراعيه القوية الفتية. وما أن استلقيا فى الفراش حتى عادت الطلقات النارية.

استشاط «جون» غضبًا وراح يسب و يلعن ثم قال: هل يعتقدون أننى لن أخرج لهم بسببك؟ انتظروا... انتظروا...

هب واقفًا وأخذ سلاحه المعلق خلف الباب بينما عروسه تركع تحت قدميه ترجوه بعدم الخروج. لكنه تركها وجرى إلى النافذه وقفز إلى الفناء.

انتظرت لمدة ساعة، ساعتين، إلى أن سطع النهار. لم يعد العريس. فقدت صوابها وراحت تقص للناس ما حدث.

بدأ الناس يتحركون بحثًا عنه، سيرا على الأقدام وبالعربات. يجوبون المنطقه كلها .

عثروا عليه على بعد فرسخين من العزبة. مربوط من قدميه حتي رأسه، نصف ميت من الرعب، سلاحه مكسور، ملابسه ممزقه بينما هناك ثلاثة أرانب برية حول رقبته ولافتة على صدره مكتوب عليها: من يذهب للصيد يفقد مكانته.

بعد ذلك أصبحت هذه الحادثة مُزحة يرددها الناس فى المنطقه وهم يقولون فى سخريه: هكذا نستمتع بليلة الدخلة فى النورماندى.

●●●

صاحـب الرفعـــة

كان الخورى يغمغم بالكلمات الأخيرة من عظته فوق الطُرح البيضاء للفلاحات و الشعور الخشنة أو المدهونة للفلاحين. الفلاحات يضعن بجوارهن الحقائب الكبيرة التى آتين بها من أماكن بعيدة من أجل القُداس. حرارة يوليو تثير القلق فى النفوس وتبعث برائحة الماشية فى المكان، رائحة القطيع. صيحات الدجاج تأتى من البوابة الضخمة المفتوحة، وأيضًا صيحات الأبقار التى ترعى فى الحقول. أحيانًا تهب نسمة هواء محملة برائحة الحقول فتتطاير أشرطة الزينة وترتجف الشعلات الصفراء للشموع فوق المذبح.

أعلن الخورى: هذه هي إرادة الرب. ثم صمت برهة وفتح الدفتر الذى أمامه و لم يجد إلا ورقتين فقط. يدّون فى هذا الدفتر الأعمال الصغيرة المتعلقة بخدمة المجتمع ليعلنها امام الجميع.

إنه رجل عجوز أشيب يقوم بأعمال الكنيسة منذ أربعين عامًا. بأسلوبه المجامل أصبحت كل العائلات تعتبره فردًا منها.

قال الخورى: أطلب منكم الصلاة من أجل «فالي» الذى يعانى من مرض شديد. وأيضًا من أجل «بومال» الذى لا يغادر فراشه.

لـم يجـد الخـورى أعمـالاً أخـرى لمطالبتهـم بهـا، بحـث فـى الأوراق أمامـه ثـم قـال: لا يجـب أن يخـرج الأولاد والبنـات إلـى المقابـر فـى المسـاء لأنهـم يقومـون بأعمـال فاضحـة. لـو اسـتمر هـذا الحـال سـأخبر الغفـر لعمـل الـلازم.

ثـم أكمـل: السـيد «أومـون» يبحـث عـن فتـاة صغيـرة شـريفة لتعمـل لديـه خادمـة.

فكر الخورى بضع لحظات ثم أكمل:

- هـذا هـو كل مـا أطلبـه منكـم. أتمنـى لكـم الخيـر و أصلـى مـن أجلكـم.

ثم هبط من كرسيه ليتمم القُداس.

عـادت أسـرة «مالونـدا» إلـى كوخهـا فـى نهايـة الكفـر. جلـس الأب الـذى كان فلاحًـا جافًـا متجعـدًا علـى المنضـدة بينمـا راحـت زوجتـه تعـد الطعـام و ابنتـه «أديلايـد» تضـع الأكـواب والأطبـاق. قـال الأب: العمـل عنـد السـيد «أومـون» قـد يكـون فرصـة جيـدة، إنه أرمـل، خدمتـه بسـيطة لأنـه يعيـش وحيـدًا. أعتقـد أنـه مـن المناسـب أن نرسـل «أديلايـد» للعمـل هنـاك.

وضعـت الزوجـة الإنـاء المتسـخ بالسـواد علـى المائـدة، رفعـت الغطـاء فاندفعـت رائحـة الكرنـب وهـى تفكـر فـى الأمـر. أكمـل الرجـل:

– إنه عصبى المزاج ،هذا مؤكد، لكنها مجرد نزهة بسيطة و «أديلايد» لن تكون مجرد قشة.

علقت الزوجة قائلة:

– ومع ذلك يجب أن أرى كل شىء بنفسى.

ثم التفتت إلى ابنتها، بدينة غبية، شقراء، وجنتاها حمراوان فى لون التفاح. ثم صرخت:

– هل تسمعين أيتها الغبية، ستذهبين إلى السيد «أومون» لتعملين خادمة و ستفعلين كل ما يطلبه منك.

ضحكت الفتاة دون أن تقول شيئًا ثم انهمك الثلاثة فى تناول الطعام.

بعد عشر دقائق قال الأب:

– اسمعى أيتها الغبية، لا يجب أن تفعلى أى خطأ، انتبهى لكل ما سأقوله لك الآن...

ثم راح يلقنها بهدوء كل قواعد السلوك، يشرح لها أدق التفاصيل و هو يعدها لمهمة خدمة عجوز أرمل مشهور بالمعاملة الفظة مع أسرته. توقفت الأم عن الطعام للاستماع، ظلت الشوكة معلقة فى يديها و هى تدير عينيها بين زوجها و ابنتها.

بعد الطعام وضعت الطرحة على رأس ابنتها و اتجهت بها إلى السيد «أومون». إنه يقيم في بيت صغير من الطوب بجوار مساكن الفلاحين الذين يعملون فى أرضه، ويعيش من ريع هذه الأرض. إنه فى الخامسة والخمسين من عمره. ضخم، مرح، وفظ مثل كل الأثرياء. ضحكاته وصرخاته تسقط الجدران. يسرف فى الشراب حتى الثمالة و يبدو نشيطًا جدًا رغم سنه.

يحب التجول فى الحقول وهو يضع يديه خلف ظهره، يغوص فى الطين وهو يتأمل المحصول بابتهاج لكنه لا يعمل فى الأرض أبدًا. يقولون إنه أب جيد لكنه لا يكون مهذبًا كل الأيام.

استقبل السيد «أومون» السيدتين وهو يتناول القهوة. تأملهما ثم قال:

- ماذا تريدان؟

اندفعت الأم قائلة:

– إنها ابنتنا «أديلايد». أرغب فى تقديمها لك خادمة، على حسب ما علمنا هذا الصباح من الخورى.

تفحص الفتاة بدقة ثم سأل:

– كم عمر هذه الصخرة؟

– عشرون عامًا سيدى.

– هذا جيد. سأدفع لها خمسة عشر فرنك فى الشهر بالإضافة إلى الطعام. أنتظرها فى الصباح لإعداد الإفطار. قال ذلك و هو يتفحص السيدتين. بدأت «أديلايد» العمل فى اليوم التالى. تعمل بكل جدية وصرامة دون أن تقول شيئًا، هكذا كانت تعمل فى منزل أهلها.

فى التاسعة صباحًا، وهى تنظف الأوانى فى المطبخ، صرخ السيد «أومون»:

- «أديلايد».

جرت و هى تقول:

- ها أنا سيدى.

تفحص يديها الحمراء الممتلئة ونظراتها المضطربة فأعلن: اسمعينى جيدًا حتى لا يحدث بيننا أى خلاف. أنت خادمة ولست أكثر من ذلك. الفارق بيننا كبير فى المكانة ولا يجب أن تتعدى حدود اللياقة أبدًا.

– نعم سيدى.

– لكل منا مكانه. أنت فى المطبخ وأنا فى الصالة. ما عدا ذلك كل شىء مشترك بيننا. مفهوم.

– نعم سيدى.

– حسنًا، هيا اذهبى لعملك.

فى الثانية عشرة ظهرًا بدأت فى إعداد الغذاء فى الصالة الصغيرة. بعد أن تأكدت من حسن نظام المائدة اتجهت إلى السيد «أومون» و قالت:

- المائدة جاهزة سيدى.

بعد أن تفحص المائدة بدقة صرخ بصوت مثل الرعد:

- «أديلايد».

أتت مرتجفة. صرخ السيد و هو يلعن الرب ثم قال:

- و أنت .... أين مكانك؟

- لكن سيدى...

صرخ:

– لا أحب أن آكل بمفردى. يجب أن تأكلى معى أو اذهبى إلى الجحيم. هيا احضرى طبقك و كوبك.

نفذت الأمر مزعورة ثم جلست تأكل أمامه. هكذا ابتهج السيد و راح يلوك الطعام و هو يطبل على المائدة. يقص عليها الحكايات بينما هى تستمع و هى تغض بصرها دون أن تقول أية كلمة. تقوم من حين إلى آخر لإحضار الخبز أو زجاجة الخمر أو أطباق أخرى نظيفة.

وهي تعد القهوة وضعت أمامه فنجانًا واحدًا فعاد إلى غضبه صارخًا:

- و أنت؟

- أنا لا أشرب القهوة أبدًا سيدى؟

- لماذا؟

- لا أحب القهوة.

انفجر صارخًا و هو يلعن الرب:

– لا أحب أن أشرب القهوة بمفردى. إن لم تشربى معى القهوة اذهبى إلى الجحيم. احضرى فنجان قهوة لك بسرعة.

أحضرت الفنجان وجلست تحتسى القهوة وهى ترتجف من مذاقها المر، لكن تحت نظراته المخيفة شربت الفنجان حتى آخر قطرة.

ثم حدث نفس الشيء عندما حان موعد الخمر. اضطرت لشرب الكأس الأول و الثانى و الثالث ثم قال:

– الآن اذهبى لغسيل الأطباق و الأكواب. أنت فتاة جيدة.

ثم أمرها:

- اذهبى للنوم وأنا سأذهب إلى حجرتى الآن...

كانت حجرتها الصغيرة الحقيرة تحت السقف. أدت صلاتها اليومية و بدلت ثيابها ثم انزلقت تحت الفراش. ثم قفزت فجأة ترتجف. صرخة رهيبة رجت جدران المنزل:

- «أديلايد»

قالت وهى على باب حجرتها:

- تحت أمرك سيدى.

- أين أنت؟

- أنا فى فراشى سيدى.

لعن الرب ثم صرخ فى همجية:

- ألا تهبطين؟ أنا لا أحب أن أنام بمفردى، وإلا فلتذهبى للجحيم.

أجابت بصوت مرتفع و هى تبحث عن الشمعدان:

- ها أنا سيدى.

سمع صوت خطواتها وهى تهبط الدرج، عندما وصلت إلى الدرجة الأخيرة احتضنها ثم دفعها إلى داخل الحجرة وهو يلعن الرب. ثم قال:

- يجب أن تكونى أسرع من ذلك.

رددت عدة مرات دون أن تدرى ما تقول:

- تحت أمرك سيدى.

بعد ستة أشهر ذهبت لزيارة أهلها. تفحصها الأب ثم قال:

- أصبحت سمينة.

قالت و هى تنظر إلى بطنها بغباء:

- لا أعتقد.

بدأ الأب فى استجوابها ليعرف الحقيقة سألها:

- هل السيد يرفع الكلفة بينكما؟

- نعم، فى الليلة الأولى والليالى التالية.

- أنت حامل أيتها البرميل الضخم.

بكت وهى تقول:

- أعرف.. أعرف.

قال الأب مسرورًا:

- أنت لا تعرفين شيئًا.

قالت من بين دموعها:

- أعلم أن هكذا يأتى الأطفال.

دخلت الأم و قال الأب دون غضب:

- هكذا أصبحت حامل.

ثارت الأم في وجه ابنتها الباكية وهى تتهمها بالفسق والفجور بينما ظل الأب صامتًا وهو يضع قبعته ويستعد للخروج للتفاوض مع السيد «أومون». قال له:

- ابنتى لا تعلم شيئًا و لا تعرف ما فعلته.

وفى يوم الأحد التالى أعلن الخورى العجوز استدعاء السيد «أومون» لمناقشته فى قضية «أديلايد».

●●●

المُنجـــدة

أقـام الماركيـز «برتـان» حفـل عشـاء بمناسـبة افتتـاح موسـم الصيـد. التـف حـول المائـدة العامـرة بالفاكهـة والزهـور اثنـا عشـر صيـادًا وثمانـى نسـاء صغيـرات و طبيـب البلـدة.

تحدثوا عـن الحـب واشـتعلت المناقشـة. الحـوار الأبـدى لمعرفـة إذا كان الحـب الحقيقـى يحـدث مـرة واحـدة فقـط أم يحـدث عـدة مـرات. قدمـوا أمثلـة عـن بعـض النـاس لـم تسـتطع الحـب إلا مـرة واحـدة فقـط وقدمـوا أمثلـة أخـرى عـن أنـاس أحبـوا بعنـف مـرات كثيـرة.

بصفـة عامـة، الرجـال يعتقـدون أن الحـب مثـل المـرض، قـد يصيـب نفـس الإنسـان عـدة مـرات وهـو مـرض عنيـف، قـد يكـون قاتـلاً لـو كانـت هنـاك بعـض العقبـات. بينمـا كانـت كل ملاحظـات النسـاء حـول الأشـعار و الروايـات العاطفيـة ليؤكـدن أن الحـب الحقيقـى لا يحـدث إلا مـرة واحـدة ويسـتمر حتـى نهايـة العمـر، يفنـى كل مـن الحبيبـين فـى الآخـر، وإذا مـات أحدهمـا يظـل الآخـر وفيًـا للنهايـة ويعيـش بقيـة حياتـه خاويًـا بـدون أيـة مشـاعر ولا حتـى أحـلام.

الماركيز الذى أحب كثيرًا دافع عن رأيه قائلاً:

– قلت لكم نستطيع الحب بكل قوة و عنف مرات كثيرة. تتحدثون عن أناس ماتوا من الحب كأنه دليل على أن الحب لا يحدث إلا مرة واحدة فقط. أقول لكم لو أن هؤلاء لم يفعلوا حماقة الانتحار واستمروا فى الحياة سيشفون من المرض ويعودون إلى الحب مرة أخرى. الإنسان يخرج من حب إلى حب حتى نهاية حياته. بعض المحبين مثل السكارى. المسألة تتعلق بطباع الإنسان.

جعلوا الطبيب حكمًا. إنه طبيب عجوز من «باريس» منفى إلى الريف. طلبوا معرفة رأيه فقال:

– كما قال الماركيز، الموضوع يتوقف على طباع الإنسان. بالنسبة لى أعلم حبًا استمر لمدة خمسة وخمسين عامًا دون التوقف لحظة واحدة و لم ينته هذا الحب إلا بالموت.

صفقت زوجة الماركيز بيدها وهى تقول:

– هذا شىء رائع. حلم جميل. يالها من سعادة أن نستمر فى الحب لمدة خمسة وخمسين عامًا غارقين فى الدفء والأمان. هذا هو أسلوب الحياة الذى نبحث عنه دائمًا. هذا الرجل يجب أن يحمد ربه حتى نهاية حياته.

ابتسم الطبيب و قال:

– بالفعل سيدتى، المحبوب كان رجلاً. تعرفونه، إنه السيد «شوكى»، صيدلى البلدة. أما هى تعرفونها أيضًا، إنها مُنجدة المقاعد التى تأتى كل عام إلى القصر. لكن يجب أن تتفهمون الموضوع جيدًا. لقد أُغتيل فرح هذه السيدة و أصبحت شاحبة، كما لو أن الحب لا يصيب إلا الضعفاء والمساكين.

استكمل الطبيب:

– تم استدعائى منذ ثلاثة أشهر لفحص هذه السيدة العجوز وهى على فراش الموت. وصلت إلى المستشفى بعربتها التى تستخدمها منزل أيضًا، والعربة يجرها الفرس الكسول الذى رأيتموه، مصحوبة بكلبين أسودين وبعض الأصدقاء والحراس. كان الخورى حاضرًا. قالت لنا وصيتها، ولكى تجعلنا نشعر بأهمية الوصية قصت لنا كل حياتها. لم أسمع فى حياتى قصة مؤلمة أكثر من ذلك.

والدها مُنجد ووالدتها مُنجدة. لم يكن لها بيت أبدًا. منذ نعومة أظافرها وهى رثة الثياب، هائمة، مكروهة. أهلها يتوقفون على مداخل القرى بجوار الحفر، بين العربات والخيول والكلاب الضالة. تتجول الصغيرة فى الحقول بينما الأب والأم

يعملان فى تنجيد كل الأثاث القديم فى المنطقة. لا يتحدثون أبدًا فيما بينهم. بعد الكلمات الضرورية فى الصيحة المعتادة: ننجد المقاعد. يجلسان على القش و ينهمكان فى العمل. بالنسبة للطفلة تذهب بعيدًا و تدخل فى علاقة مع بعض صبيان القرية. ثم يصرخ الأب قائلاً فى غضب: ألا تجلسين بجوارنا أيتها الفاجرة. لم تسمع من والدها شيئًا إلا هذه الجملة.

بعد أن كبرت قليلاً يرسلونها للقيام بأعمال التنجيد عند أصحاب المزارع الطماعين، وبدأت فى الاختلاط بالصبيان الوقحين، لكن فى هذه السن المبكرة ينادى الأهل على الصبيان ويلومونهم على التحدث مع هذه الحافية.

فى الغالب، الأولاد الأكبر يلقونها بالحجارة. بعض النساء يمنحونها بضعة مليمات تحتظ بها كأنها ثروة كبيرة.

فى ذات يوم، عندما كانت فى الحادية عشرة من العمر، التقت خلف المقابر الصغير «شوكى» الذى كان يبكى لأن أحد أصدقائه سرق منه بعض المال. تأثرت لدموع هذا البورجوازى الصغير. رأت أنه صغير جدًا على هذه المعاناة و يجب أن يستمتع بكل لحظة فى حياته. اقتربت منه و عندما علمت بسبب حزنه وضعت فى يده كل مدخراتها، سبعة مليمات. أخذها «شوكى» ومسح دموعه. سعدت المُنجدة الصغيرة كثيرًا لسعادته و قبلته.

ولأنه كان مشغولاً جدًا بالمال لم يهتم بما فعلته. لم يشعر بها ولم يتقزز منها مثل الآخرين ولم ينهرها. هكذا احتضنته بعمق وأخذته فى صدرها ثم فرت هاربة.

ما الذى حدث فى هذا الرأس البائس؟ هل تعلقت بهذا الطفل لأنها ضحت بثروتها من أجله أم لأنها منحته أول قبلة حانية فى حياتها؟ الغموض نفسه عند الصغار والناضجين.

ظلت تحلم بهذا الركن من المقبرة وهذا الصبى لعدة شهور. و لأنها تأمل رؤيته مرة أخرى راحت تسرق من أهلها مليمًا من هنا وآخر من هناك و تدس المليمات فى ثيابها.

عندما عادت أصبح لديها فرنكان. لمحت الصيدلى الصغير نظيفًا جدًا فى متجر والده خلف الفترينات المتلألئة و بجواره وعاء أحمر. هذا المشهد لم يجعلها تحبه أكثر من ذى قبل، لقد أحبته بالفعل قبل ذلك. لم تحاول الاقتراب منه حتى لاتصيبه بالقاذورات التى حول جسدها.

لم تنس هذا اليوم أبدًا.

وعندما التقته خلف المدرسة وهو يلعب الورق مع أصدقائه خطفته فى أحضانها وراحت تقبله بكل عنف حتى أنه صرخ من الرعب. لكى تحاول تهدأته منحته ما معها من المال،

ثلاثة فرنكات. مبلغ صخم جدًا حتى أن عينيى الصبى تلألأت بالدهشة. أخذته وراحت تربت عليه كيفما يحلو لها.

ظلت تمنحه كل أموالها لمدة أربع سنوات فى مقابل الاقتراب منه وتقبيله والتربيت عليه. مرة تمنحه ثلاثين مليمًا و مرة فرنكين و مرة اثنى عشر مليمًا و هى تبكى و تعتذر لأن العام الماضى كان سيئًا جدًا. آخر مرة منحته خمسة فرنكات، قطعة واحدة مستديرة وابتسم «شوكى» فى سعادة.

هى لا تفكر إلا به، وهو ينتظرها بصبر فيجرى نحوها وهذا يجعل قلب الفتاة الصغيرة ينتفض. ثم اختفى الصبى. بعد أن سألت عنه بحرص أدركت أن أهله أرسلوه إلى الجامعة. استكملت التجوال مع أهلها و يعودون إلى نفس المكان فى الإجازات. لم تلتقه إلا بعد عامين. لم تعرفه فى البداية لأنه تغير، كبر، تأنق، سترته تتزين بأزرار ذهبية. تجاهل وجودها تمامًا، مر من أمامها بصرامة و جدية.

لم تبك لمدة يومين لكنها ظلت تعانى و تتألم حتى نهاية حياتها.

كل عام تأتى إلى هنا، تمر أمامه ولا تجرؤ على الحديث معه وهو لا يدير عينيه نحوها أبدًا. تحبه بجنون. قالت لى:

سيدى الطبيب، إنه الرجل الوحيد الذى أراه على سطح الأرض ولا أشعر بوجود أحد غيره.

أهلها ماتوا و هى استمرت فى نفس المهنة، لكنها اتخذت كلبين للحراسة بدلاً من واحد كما كان يحدث من قبل. أحد الكلبين شرس جدًا ولا يهزمه أحد أبدًا.

فى ذات يوم، و هى تدخل البلدة حيث تركت قلبها، لمحت سيدة صغيرة تخرج من متجر «شوكى» و تتأبط ذراع حبيبها. إنها زوجته.

فى هذه الليلة ألقت بنفسها فى المستنقع الموجود أمام مكتب المحافظة. مر بجوارها رجل ثمل و أشفق عليها. قادها الرجل إلى صيدلية «شوكى» لتلقى العلاج. بدا كأنه لا يعرفها مطلقًا. خلع ثيابها و دلك جسدها ثم قدم لها العلاج وهو يقول:

- أنت مجنونة، لا يجب أن تكونى حمقاء بهذا الشكل.

هذا يكفى لعلاجها. لقد تحدث معها وغرقت فى السعادة فترة طويلة.لا ترغب فى أموال أسرته بل ترغب فى أن تظل تدفع له بالمال.

استمرت طوال حياتها على هذا الحال. تقوم بعملها فى التنجيد وهى تفكر به. تأتى إلى نفس البلدة كل عام لترقبه من

خلف الواجهة الزجاجية. اعتادت على شراء الأدوية منه لتتمكن من رؤيته عن قرب و تتحدث إليه و تمنحه المال.

وكما قلت لكم فى البداية، ماتت منذ عدة أيام بعد أن قصت لى حكايتها الحزينة. رجتنى و هى على فراش الموت أن أقدم كل ما تملك لمحبوبها لأنها لا تعمل إلا من أجله. كل أملها أن يفكر بها لحظة واحدة بعد موتها.

أعطتنى ألفين و ثلاثمائة و سبعة و عشرين فرنكًا. دفعت للخورى سبعة و عشرين فرنكًا لمصاريف الدفن.

فى اليوم التالى ذهبت إلى أسرة «شوكى». دعونى لتناول الغذاء معهما. كان الزوجان طافحين بالصحة و السعادة. ثم قدما لى بعض الخمور للترحيب و رحت أقص لهم الحكاية بصوت حزين حتى أننى كنت على وشك البكاء.

عندما علم الصيدلى «شوكى» أن هذه الغجرية الفقيرة الحقيرة كانت تحبه قفز فوق مقعده كأن هذا ينال من شرفه ومكانته الاجتماعية.

زوجته أيضًا غضبت كثيرًا و هى تردد: هذه العاهرة! هذه العاهرة! هذه العاهرة! كأنها لا تجد كلمة أخرى تقولها.

هب السيد «شوكى» و راح يتجول حول المنضدة فى عصبية ثم قال:

- هل تصدق ذلك؟ لو كنت أعلم ذلك أثناء حياتها لطلبت من الشرطة القبض عليها و حبسها و لن تخرج من السجن أبدًا.

فى هذة اللحظة ندمت على ما أقوم به لكن يجب استكمال المشوار للنهاية. قلت:

- طلبت منى تقديم كل مدخرتها لك. المبلغ يصل إلى ألفين و ثلاثمائة فرنك و لأننى ألاحظ غضبكما أقترح تقديم هذا المال للفقراء.

راحا ينظران إلىّ فى تردد. أخرجت المال من جيبى و أنا أقول:

- ما قراركما؟

قالت الزوجة:

- أعتقد أن من الصعب رفض تنفيذ طلبها الأخير.

ثم أكمل السيد «شوكى»:

- نستطيع شراء بعض الأشياء لأولادنا بهذا البلغ.

قلت بصوت مخنوق:

- كما تريدان.

ثم أكملت:

- طالما أنها ترغب فى العطاء، إذًا يجب استغلال الفرصة جيدًا.

وضعت المال أمامهم و انصرفت.

فى اليوم التالى أتى إلىّ السيد «شوكى» وقال:

- لكن هذه السيدة تركت أيضًا هذه العربة. ماذا ستفعل بها؟

- لا شىء. خذها إن أردت.

- أنا فعلاً بحاجة إليها. سأصنع منها كوخًا فى حديقتى.

- تركت أيضًا حصانها العجوز والكلبين. هل تريدهما؟

قال مذهولاً:

- لا. ماذا أفعل بهم؟ تصرف بهم كيفما تشاء.

ضحك ثم مد يده مصافحًا وهو يقول:

- لا يجب أن يكون الطبيب و الصيدلى أعداء.

احتفظت بالكلاب عندى بينما الخورى الذى يملك حديقة كبيرة أخذ الحصان أما العربة أصبحت كوخًا فى حديقة «شوكى» و اشترى خمسة أسهم بالمال.

هذا هو الحب العميق الوحيد الذى صادفته فى حياتى.

صمت الطبيب برهة. قالت زوجة الماركيز وهى تبكى:

- يبدو أن النساء يعلمن الحب جيدًا.

●●●

في البحـــر

قرأنا مؤخرًا فى الجرائد السطور التالية.

العنـوان: «مـن بولونيـا» مـن عـرض البحـر. تحـت العنـوان مكتـوب: وقعـت حادثـة مروعـة لـم يحـدث مثلهـا منـذ عامـين. اصطـدم مركـب الصيـد، تحـت قيـادة «جافيـل» بالصخـور مـن الشـرق والغـرب وتحطـم تمامًـا.

خبـر آخـر يقـول: رغـم كل محـاولات سـفن الإنقـاذ ورجـال الشـرطة و الجيـش، مـات أربعـة رجـال والنوتـى مخنوقـين.

خبـر ثالـث يقـول: مـازال الطقـس سـيئًا و نخشـى وقـوع حـوادث جديـدة.

من هو «جافيل» مالك المركب؟ هل هو الأكتع؟

إذا كان هـذا الرجـل المسـكين الـذى غـرق وسـط الأمـواج بـين حطـام مركبـه هـو الرجـل الـذى أعرفـه، فلقـد مـر بمأسـاة مشـابهة ومروعـة منـذ ثمانيـة عشـر عامًـا.

لأن «جافيـل» هـو الابـن الأكبـر أصبـح هو رئيس مركب الصيد. كان المركـب فـى حالـة جيـدة جـدًا، صلـب لمواجهـة كل العواصـف،

مستدير من الداخل، يبحر دون توقف، يخرق الأمواج بقوة، يواجه الرياح الشديدة المالحة لبحر المانش. دائمًا أشرعته منتفخة و هو يجر خلفه شبكة كبيرة تغوص فى أعماق المحيط فيصطادون كل الأسماك المختفية بين الصخور وكل الأسماك الهائمة فى البحر والملتصقة بالرمال فى القاع. يصطادون سرطانات البحر الثقيلة والجمبرى الكبير ذا الشوارب المدببة.

فى هذا اليوم خرج المركب للصيد عندما كانت الرياح هادئة والأمواج منخفضة. الشبكة مثبتة حول عامود ضخم من الخشب المطلى بالحديد و يسقطونها فى البحر بواسطة حبلين سميكين ينزلقان حول عجلتين من جانبى المركب. يتحركون عن طريق الريح والتيار ويمسحون أرضية البحر بهذه الشبكة الحديثة.

أخو «جافيل» الأصغر يعمل معه فى المركب بالإضافة إلى أربعة رجال والنوتى. كان الجو صحوًا مشمسًا فى بداية الرحلة. ثم هبت عاصفة هوجاء دفعت المركب إلى الفرار. وصلوا إلى الشاطئ الإنجليزى لكن الأمواج العاتية تضرب الصخور بشدة وتمنعهم من دخول أى ميناء. عاد المركب إلى عرض البحر واقترب من الشاطئ الفرنسى لكن العاصفة أصبحت أشد قسوة، الأمواج تعاند و تمنع الاقتراب من الأرض. لكنه مركب عنيد ضخم قوى، ظل يتأرجح بين البلدين لمدة ستة أيام.

هدأت العاصفة قليلاً وهم فى عرض البحر، لكن الأمواج مازالت قوية. أمر الرئيس بإلقاء الشبكة.

اتخذ الرجال أماكنهم. اثنان فى المقدمة واثنان فى الخلفية وانزلقت الشبكة حول العجلات. عندما وصلت إلى العمق ارتج المركب بموجة ضخمة. كان الأخ الأصغر فى المقدمة يتابع سقوط الشبكة. سقط وانزلق ذراعه بين الحبال والعامود الخشبى. جاهد كثيرًا مستخدمًا ذراعه الأخرى لرفع الحبل لكن الشبكة فى البحر تجذب الحبل بعنف.

صرخ الرجل من الألم يطلب الغوث و جرى الجميع نحوه. أخوه ترك الدفة و اندفع لإنقاذ ذراع أخيه من الحبال. كانت كارثة. صرخ أحد الرجال:

- يجب قطع الحبال.

ثم جذب سكينًا ضخمًا من ملابسه قادر على إنقاذ الذراع المكبلة.

لكن قطع الحبال يعنى فقدان الشبكة، يعنى فقدان الكثير من المال، ألف وخمسمائة فرنك. المركب كله ملك للأخ الأكبر وتحت رئاسته، فصرخ فى جزع:

- لا... لا تقطعوا... انتظروا. سأغير اتجاه الدفة.

قال ذلك و جرى نحو الدفة.

لكن المركب لا يستجيب. التفت الحبال حول الدفة وشلت حركتها، بالإضافة إلى سرعة الريح.

سقط الأخ الأصغر على ركبتيه فى يأس وهو يضغط على أسنانه بينما عيناه مذعورتان. لم يقل شيئًا. أتى أخوه الأكبر وهو مازال يرتجف من السكين و قال:

- انتظروا. انتظروا. لا تقطعوا. يجب أن نلقى الهلب.

ألقوا الهلب وانزلقت السلاسل الحديدية بعنف وهم يحاولون جذب الحبال. ونجحوا أخيرًا فى تحرير الذراع المكبلة.

الأخ الأصغر أصبح مستسلمًا. نزعوا سترته ليروا مشهدًا رهيبًا، لحم ذراعه متعجن بينما الدماء تنزف بشدة. قال الجريح وهو ينظر إلى ذراعه:

- سأموت.

انسابت الدماء فى المركب و صرخ أحد الصيادين:

- هكذا سيموت، يجب غلق الوريد.

أخذوا الحبال الرفيعة التى معهم وربطوا العضو المصاب بقوة شديدة إلى أن توقف النزيف شيئًا فشيئًا.

هب الأخ الأصغر بينما ذراعه يتدلى بجواره. أمسكه بذراعه الأخرى، رفعه، حركه. كل شيء ممزق تمامًا، لم يبقى فى هذا الطرف إلا العضلة فقط. تأمله بنظرة كئيبة وهو يفكر. ثم جلس بجوار الشراع بينما الأصدقاء يلتفون حوله وينصحونه بغسل ذراعه دون توقف لمنع الألم.

وضعوا الجردل بجواره. كل دقيقة يسحبون المياه بالكوب ويصبونها على الجرح إلى أن تساقطت المياه الصافية. قال له الأخ الأكبر:

- ستكون فى حالة أفضل بالأسفل.

نزل إلى الطابق الأسفل لكنه صعد بعد ساعة لأنه لا يحب الشعور بالوحدة. بطبيعته يحب الهواء الطلق. جلس بجوار الشراع و استمر فى غسل ذراعه.

كان الصيد وفيرًا. الأسماك الكبيرة البيضاء تتلوى بجواره، يتأملها ثم يتأمل ذراعه.

فى طريق العودة إلى «بولونيا» عاودت الرياح هجومها ودخل المركب فى صراع مجنون وهو يرج الجريح الحزين.

هبط الظلام واستمرت العاصفة حتى الفجر. مع ضوء الشمس لمحوا الأرض الإنجليزية لكن لأن البحر أصبح أهدأ قليلاً رحلوا فى اتجاه فرنسا.

فى المساء، الأخ الصغير طلب أصدقاءه وهو يشير لهم إلى العلامات السوداء، لقد ظهرت عفونة سوداء بشعة على الذراع المصاب. تأمله الصيادون وقال أحدهم:

- هذا صديد.

أعلن الآخر:

- يجب غسله بالماء المالح.

أتوا بالمياه المالحة و سكبوها على الجرح. شحب الجريح وهو يضغط على أسنانه ويكتم صراخه. وبعد أن هدأت الآلام قال لأخيه:

- أعطينى السكين.

أعطاه السكين ثم قال الجريح:

- امسك ذراعى وارفعه فى الهواء.

فعل الأكبر ما طلبه منه و بدأ الأصغر فى قطع نفسه. يقطع بهدوء بالسكين الحاد مثل الموسى حتى تخلص من ذراعه تمامًا. ثم صرخ و هو يعلن:

- كان يجب فعل ذلك. كنت سأموت.

بدا عليه الارتياح وهو يتنفس بقوة وراح يصب المياه على مكان البتر.

أصبحت العاصفة أشد فى المساء ولا نستطيع الاقتراب من الأرض. عندما سطع النهار التقط الجريح ذراعه المبتور وراح يتأمله كثيرًا. بدأت عملية التحلل. أتى الأصدقاء لفحص الذراع الواحد تلو الآخر ثم قال أخوه:

- يجب أن نلقيه فى البحر الآن.

لكن الجريح غضب كثيرًا:

- لا... لا... لا أرغب فى ذلك أبدًا. إنه ذراعى أنا ويخصنى أنا.

قال الأخ الأكبر:

- هذا سيقتلنا جميعًا.

فجأة أتت الفكرة إلى الجريح. عندما نقضى فترة طويلة فى عرض البحر نحتفظ بالأسماك فى الملح وطالب بحفظ الذراع المبتور بنفس الأسلوب.

قال الآخرون:

- هذا صحيح.

هكذا أفرغوا صندوقًا من الأسماك ووضعوا الذراع فى الملح ثم أعادوا الأسماك فوقه. قال أحد البحارة مازحًا:

- سنبيعه فى المزاد.

ضحكوا جميعًا ما عدا الأخوان.

مازالت العاصفة مستمرة. الأنظار تتجه نحو «بولونيا» حتى الساعة السادسة صباحًا. الجريح يصب الماء على جرحه دون توقف. من حين لآخر يتجول فى المركب من أوله لآخره. أخوه الذى يقبض على الدفة يرقبه وهو يهز رأسه فى أسى.

أخيرًا وصلوا الميناء.

الطبيب فحص الجريح و مدح فعلهم ثم أمره بالراحة، لكنه لا يستطيع النوم دون أن يأخذ ذراعه فعاد بسرعة إلى المركب بحثًا عنه فى الملح. لفه بحرص شديد فى المنشفة وعاد إلى منزله.

الزوجة و الأولاد تفحصوا الجزء المبتور من الأب بدقة ثم طلبوا عامل المقابر ليحدد حجمه ويعد له مقبرة خاصة.

فى اليوم التالى خرجت الصحبة كلها فى الجنازة خلف الذراع المبتور. الأخوان يسيران بجوار بعضهما البعض فى أسى.

اعتـزل الجريـح الصيـد وبـدأ فـى ممارسـة أعمـال صغيـرة فـى الميناء. وبعـد ذلـك أصبـح عندمـا يتحـدث عـن الحادثـة يقـول بصـوت منخفـض: لـو كان أخـى وافـق علـى قطـع الشـبكة لمـا فقـدت ذراعـى. لكنـه لا يفكـر إلا فـى مصلحتـه.

●●●

الوصـــية

أعرف هذا الشاب الضخم الذى يُدعى «رينى بورنفال». إنه تاجر محبوب. رغم حزنه يبدو كأنه قد حصل على كل شىء. يعتنق مذهب الشُكاك. شكوكه دقيقة و كلماته لاذعة. شديد الحرص والحساسية عندما يسمع كلمات الرياء الاجتماعى. يردد دائمًا: لا يوجد رجال شرفاء، أو على الأقل، الجميع يمارس الفجور بدرجات مختلفة.

له أخان لا يراهما أبدًا. إخوته تحت اسم «كورسيل». أعتقد أن صديقى ليس نتاج نفس الفراش، ألا تلاحظون الاختلاف فى الاسم؟...

سمعت حكايات كثيرة و غريبة عن هذه الأسرة لكن لا أحد يعلم التفاصيل.

صديقى يروق لى وأصبحنا نتسامر كثيرًا ونحن ندخن السجائر. فى ذات ليلة، بينما كنت أتناول العشاء عنده ونتسامر، سألته بالمصادفة:

- هل أنت من الزواج الأول أو الثانى؟

فـى هـذه اللحظـة شـحب وجهـه ثـم احمـر. صمـت لحظـات وبـدا عليـه الخجـل والارتبـاك. ثـم ابتسـم فـى يـأس وقـال بهـدوء:

- صديقـى العزيـز، إن لـم يزعجـك سـأقص لـك تفاصيـل أصلـى، وهـى تفاصيـل خاصـة جـدًا. أعلـم أنـك رجـل ذكـى ولذلـك أخشـى مـن فقـدان صداقتـك. ولـو تأثـرت صداقتنـا أعـدك أننـى لـن أفرضهـا عليـك.

والدتـى زوجـة «كورسـيل». كانـت فتـاة صغيـرة وفقيـرة. تزوجتـه مـن أجـل الثـروة فقـط. كانـت كل حياتهـا معانـاة. تتمتـع بـروح محبـة، وجلـة، رقيقـة. كان زوجهـا، الـذى مـن المُفتـرض أنـه أبـى، يعاملهـا بغلظـة و قسـوة، رجـل قـروى فـظ. بعـد مـرور شـهر واحـد مـن الـزواج بـدأ فـى معاشـرة خادمـة، كمـا كان لديـه عشـيقات كثيـرات مـن النسـاء والفتيـات العامـلات فـى مزرعتـه. هكـذا لا مانـع مـن أن يصبـح لديـه طفـلان مـن زوجـة واحـدة و أحيانًـا ثلاثـة. هـل تفهمنـى؟ والدتـى لا تعتـرض علـى شـىء أبـدًا. تعيـش فـى هـذا المنـزل فـى صخـب دائـم مثـل الفئـران الصغيـرة التـى تختفـى خلـف قطـع الأثـاث. مطموسـة، متخفيـة، ترقـب النـاس بنظـرات قلقـة وصافيـة، لا تحـرك سـاكنًا، الخـوف لا يتركهـا أبـدًا. كانـت جميلـة بـل جميلـة جـدًا، شـقراء منطويـة.

من بين الأصدقاء المترددين على قصر «كورسيل» كان هناك فارس عجوز أرمل، رجل مُهاب، ناعم ودود، قادر على مواجهة كل المشاكل. إنه السيد «بورنفال» الذى أحمل اسمه. إنه رجل جرىء نحيف يتحلى بشارب أسود ضخم. يقولون أننى أشبهه كثيرًا. هذا الرجل قرأ كثيرًا ولا يفكر مثل بقية أفراد طبقته. كانت جدته صديقة لـ «جون جاك روسو» ويقولون أنه ورث شىء ما عن هذه العلاقة. يحفظ عن ظهر قلب «العقد الاجتماعى» و كتب أخرى كثيرة تعود إلى التاريخ القديم الذى يشكل ثقافتنا اليوم. يعلم الكثير عن القضاء و القوانين و يعلم جيدًا أخلاقنا العبثية.

يبدو أن هذا الرجل أحب والدتى وهى أيضًا أحبته. استمرت العلاقة بينهما فى سرية تامة. السيدة المسكينة البسيطة أصبحت حزينة و تعلقت به فى يأس، تعلمت منه كيف تفكر و تعلمت منه نظريات الحرية، تعلمت منه التهور والاندفاع فى الحب. لكنها كانت جبانة ولم تستطع الإفصاح عن نفسها أبدًا. كل هذا يقلقها و يزيد من مخاوفها.

أخواى يتعاملان معها بمنتهى القسوة والغلظة مثل والدهما، لا يتعاطفان معها أبدًا. يتعاملان معها كأنها خادمة فى المنزل. أنا الابن الوحيد الذى كان يحبها و تحبنى.

ماتت عندما كانت فى الثامنة عشرة من العمر. يجب أن أضيف لك، لتعلم ما حدث بعد ذلك، أنه تم استدعاء زوجها من النائب العام لمناقشة مصدر ثروته، لذلك اضطر أن يكتب كل أملاكه باسم زوجته. وعلمنا بعد وفاتها مباشرة أن هناك وصية عند النائب العام الذى دعانا ليتلوها علينا.

أتذكر كل ما حدث كأنه حدث بالأمس. كان مشهدًا فخمًا مأسويًا، هزليًا مذهلاً. إنها صرخة الحرية تأتى من قلب المتوفية التى تألمت كثيرًا فى حياتها، صرخة يائسة عن الحرية.

ما أعتقد أنه والدى هو رجل ضخم دموى يعيش بفكر الجزار. أخواى هما شابان قويان فى العشرين والثانية والعشرين من العمر، كلنا نجلس بهدوء. السيد «بورنفال» تم استدعائه للحضور و جلس فى مكانه خلفى. كان يتدثر بمعطفه، شاحبًا، يضغط على أسنانه تحت شاربه الذى أصبح رماديًا الآن. يترقب ما سيحدث.

أغلق النائب العام الباب بالمفتاح و بدأ يقرأ بعد أن فك الشمع الأحمر الذى يغلف الوصية.

فجأة صمت صديقى، هب واقفًا ثم سحب من صندوق متعلقاته الشخصية ورقة قديمة وقال:

- هذه هى وصية أمى العزيزة.

(اسمى «آن كاترين» وأنا الزوجة الشرعية لـ «كورسيل». أكتب هذه الوصية و أنا فى كامل قواى العقلية.

فى البداية أطلب العفو من الرب و من ابنى الغالى «رينى» بعد ذلك عن الجرم الذى ارتكبته فى حقه وأعتقد أن قلب ابنى الكبير قادر على أن يسامحنى و يفهمنى. عانيت كثيرًا طوال حياتى. كان زواجى مثل صفقة تجارية. ثم تحول إلى صفقة ازدراء واحتقار من ناحية زوجى.

أنا أسامحه لكن ليس له أى حق عندى.

ولداى الكبيران لا يحبانى، لا يشعران بوجودى أبدًا.

حاولت خدمتهما والتعاون معهما بقدر استطاعتى طوال حياتى. علاقة الدم بيننا لم تنقطع أبدًا فى يوم من الأيام. الابن الذى يتعامل مع والدته كأنها غريبة عنه لا يعتبر مفضلاً بالنسبة لأمه.

أنا أرتجف دائمًا أمام الرجال، أمام قانونهم الغاشم وعاداتهم الغير إنسانية و أحكامهم الغليظة. أما أمام الرب أنا لا أخشى شيئًا. بعد أن مت رفعت عن نفسى كل الارتياب والتردد. أستطيع الآن التعبير عن فكرى و أكشف عما فى قلبى.

إذاً، أترك كل ثروتى، على حسب ما يسمح به القانون، لحبيبى «بورنفال» ليرثه بعد ذلك ابننا الغالى «رينى».

سأذهب إلى القاضى العادل و أشكو له كل آلامى و همومى، وهو يعلم جيدًا أنه خلق البشر ليتحابوا فيما بينهم.

ولداى الكبيران أبوهما «كورسيل». أما «رينى» فقط هو ابن «بورنفال». أقر بذلك إحقاقًا للحق. أنا أحبكم جميعًا وسأظل أحبكم حتى وأنا فى قبرى. هذه هى رغبتى الأخيرة.

التوقيع « اَن كاترين».)

السيد «كورسيل» هب واقفًا و صرخ: يالها من امرأة مجنونة.

السيد «بورنفال» أعلن بصوت قوى وحاسم أن كل ما قالته حقيقى. وأنا كنت مستعدًا لمساندة هذا الرجل أمام أى إنسان مهما كان.

السيد «كورسيل» اتجه نحوى. اعتقدت أنه سيضربنى. الرجلان المتصارعان سيتواجهان، أحدهما ضخم والآخر نحيف مرتجف. زوج والدتى قال: أنتم بؤساء. الآخر أعلن بصوت جاف وفظ: سنبتعد عنكم سيدى. لقد صفعتك منذ زمن طويل لكنى احتفظت بهدوئى طوال حياة هذه السيدة المسكينة التى عذبتها كثيرًا.

ثم التفت نحوى و قال:

– أنت ابنى، ألا تتبعنى؟ ليس لدى الحق فى الاحتفاظ بك لكنى قادر على الحصول على هذا الحق من المحكمة.

ضغطت على يديه دون أن أقول أية كلمة. بالتأكيد كنت على وشك الجنون فى هذه اللحظة.

بعد يومين، السيد «بورنفال» قتل السيد «كورسيل» فى المبارزة. أخواى صمتا من الخوف هددتهما وقبلا بنصف ثروة والدتى التى منحتها لهما.

عدت إلى اسمى الحقيقى. رفضت ما منحه لى القانون لأنه ليس من حقى. السيد «بورنفال» مات منذ خمس سنوات ولم أعزى فيه حتى الآن .

هب صديقى واقفًا وجلس فى مواجهتى ثم قال:

– أعلم أن وصية والدتى كانت رائعة وصادقة، هذا أكثر كثيرًا مما تتحمله امرأة ضعيفة. أليس كذلك؟

صافحته بكلتا يدىّ و أنا أقول:

- بالتأكيد يا صديقى.

●●●

في الحـــقول

الكوخـان متلاصقـان تحـت التـل، بالقـرب مـن قريـة صغيـرة. القرويـان يعمـلان بجديـة فـى الأرض المريضـة لإعاشـة أطفالهـم. يوجـد فـى كل مسـكن أربعـة أطفـال. أمـام البابـين المتجاوريـن، كل الأطفـال يلعبـون مـن الصبـاح إلـى المسـاء. الكبيـران فـى السادسـة مـن العمـر بينمـا الصغيـران حوالـى خمسـة عشـر شـهرًا. مواعيـد الـزواج والإنجـاب متشـابهة فـى الكوخـين.

مـا أن ينتهـى الوالدتـان مـن طهـو الطعـام حتـى يقـوم الوالـدان بإعـداد المائـدة. الأسـماء الثمانيـة تختلـط دائمًـا فـى العقـول. عندمـا نحتـاج إلـى النـداء علـى أحدهـم، ينـادى الرجـال علـى ثلاثـة أسـماء قبـل أن يصلـوا إلـى الاسـم الصحيـح.

أول الكوخـين قـادم مـن محطـة الميـاه فـى «رولبـورت» يشـغلها «توفـاش» الـذى لديـه ثلاثـة بنـات وولـد واحـد. المنـزل الآخـر تشـغله أسـرة «فيـلان» ولـه فتـاة واحـدة وثلاثـة أولاد.

كل هـؤلاء يعيشـون علـى المرقـة والبطاطـس فـى الهـواء الطلـق. يجتمعـون فـى السـابعة صباحًـا ثـم فـى الثانيـة عشـرة ظهـرًا ثـم السادسـة مسـاءً ليقدمـوا العجائـن للصغـار. الكبـار يجمعـون الصغـار

مثل مربى الدجاج. يجلس الأطفال فى صف حسب السن حول المنضدة العتيقة المصنوعة من خمسين عامًا. الأصغر منهم يصل فمه بالكاد إلى سطح المنضدة. يضعون أمامهم أطباقًا مليئة بالخبز المنقوع المرقة المطهية بالبطاطس ونصف كرنبة محلية بالزبد وثلاث بصلات و ينهمك الجميع فى الطعام حتى الشبع. الأم تعاون الصغير على الطعام. فى يوم الأحد يضعون القليل من اللحم على النيران. إنه يوم عيد بالنسبة للجميع والأب فى هذا اليوم يتأخر قليلاً وهو يقول: لقد عملت كثيرًا طوال الأسبوع.

فى إحدى أمسيات شهر أغسطس توقفت فجأة عربة خفيفة أمام الكوخين، تقودها سيدة صغيرة بنفسها وقالت للسيد الجالس بجوارها:

– آه! انظر «هنرى» هذه المجموعة من الأطفال. أليسوا فى غاية الجمال و هم ملطخون بالتراب؟!

الرجل الذى اعتاد على هذه الكلمات لم يرد. كلماتها مؤلمة ولائمة. استكملت السيدة الصغيرة:

- يجب أن أحتضنهم . آه! أحلم أن يكون لدى طفل واحد مثل هذا الصغير جدًا.

قفزت من العربة وجرت نحوهم تحتضن أحد الصغيرين، إنه الصغير «شارلو « الذى ينتمى إلى أسرة «توفاش». قبلته فى وجنتيه الملطخة بالتراب وربتت على شعره الأشقر المتسخ وعلى يديه الصغيرتين العابثتين.

ثم صعدت إلى العربة ورحلت وهى تحث الحصان على الإسراع. لكنها عادت فى الأسبوع التالى. جلست بنفسها على الأرض، أخذت «شارلو» فى أحضانها وأعطته الجاتو ومنحت البونبون لكل الآخرين. لعبت معهم كأنها سوقية مثلهم بينما زوجها ينتظر بصبر فى العربة الفاخرة.

عادت مرة أخرى و تعرفت على الأهل ثم أصبحت تأتى كل يوم و جيوبها ممتلئة بالحلويات و قطع النقود الصغيرة.

اسمها حرم «هنرى هوبيار».

فى ذات صباح هبط زوجها من العربة. لم تتوقف بين الأطفال الذين أصبحوا يعرفونها الآن، بل اتجهت هى وزوجها إلى المنزل. كان الفلاحان يعدان النيران لصنع المرقة. هبا واقفين وقدما لهما المقاعد وظلا صامتين. قالت السيدة بصوت مرتجف:

– أصقائى الأعزاء، جئت لأطلب منكم... أطلب منكم... أطلب... ابنكم... ابنكم الصغير.

الفلاحان ذهلا، توقف عقلهما تمامًا و لم يجب أى منهما. أكملت السيدة فى تلعثم:

- ليس لدينا أطفال، نعيش فى وحدة، زوجى و أنا... سنأخذه... هل توافقان؟

فهمت الفلاحة ما تقصده و سألت:

هل تريدين أخذ هذا الصغير «شارلو»؟ لا بالتأكيد.

تدخل زوج السيدة قائلاً:

- هناك سوء فهم سيدتى. نرغب فى أن نتبناه لكنه سيأتى لزيارتكم. حتى لو صارت الأمور بشكل جيد كما نريد سيصبح وريثنا. على سبيل المثال، لو أنجبنا أطفال فيما بعد سيصبح وريثًا متساويًا لهم و لو رفض الطفل طاعتنا سنمنحه عشرين ألف فرنك و سنقوم بتسجيل هذا المبلغ باسمه فى المحكمة. و لأننا نفكر بكم سنظل فى خدمتكم حتى الممات بمبلغ مائة فرنك فى الشهر. هل فهمتهم قصدى؟

هبت الفلاحة واقفة فى غضب و قالت:

- هل تريد أن أبيع لك «شارلو»؟ لا، مستحيل أن تطلب من الأم ذلك. لا طبعًا ، هذا فحش.

لـم يقـل السـيد شـيئًا، تفكـر بجديـة وهـو يرقـب زوجتـه التـى فقـدت صوابهـا وراحـت تبكـى وهـى ترنـو إليـه وتغمغـم بصـوت طفولـى مفعـم بالأسـى:

- لا يريدون يا «هنرى» . لا يريدون.

قام السيد بالمحاولة الأخيرة وهو يقول:

- فكروا يا أصدقائى فى مستقبل الطفل، فى سعادته، فى...

قاطعته الفلاحة بغضب:

- لقـد سـمعت كل شـىء وفهمـت كل شـىء وفكـرت جيـدًا. اذهبـا بعيـدًا، لـن أبيـع ابنـى بهـذه الطريقـة أبـدًا.

خرجـت السـيدة وهـى تبكـى. تذكـرت أن هنـاك طفـلاً آخـر صغيـرًا، سـألت مـن بـين دموعهـا:

- هل الطفل الآخر ابنك؟

الأب « توفاش» قال:

- لا ، إنه ابن جيراننا. من الممكن أن تذهبا إليهما إن أردتم.

قـال ذلـك ثـم دخـل بيتـه وأغلـق البـاب بينمـا مازالـت الأم تصيـح فـى غضـب.

فى أسرة «فيلان» كان الزوجان حول المائدة يتناولان الخبز المطهو بالقليل من الزبد فى طبق واحد بينهما.

بدأ السيد «هنرى» فى تقديم عرضه بحرص شديد ولباقة.

القرويان هزا رأسهما بالرفض، لكن عندما علما بمبلغ مائة فرنك فى الشهر راح كل منهما يرنو إلى الآخر وهو يتفكر. التزما الصمت فترة طويلة، يتفكران، يترددان وأخيرًا سألت الأم:

- ماذا يقول هذا الرجل؟

أجاب زوجها بصوت مضخم:

- هذا الرجل يحدثنا باحتقار.

السيدة «هوبيار» التى ترتجف من الألم راحت تتحدث عن مستقبل الطفل وسعادته وعن المال الذى سيحصل عليه بعد ذلك. سأل القروى:

-ألن تثبت مبلغ الألف و مائتى فرنك فى العام عند المحامى؟

قال السيد «هوبيار»:

- بالتأكيد، من الغد.

الفلاحة التى تفكر بجدية قالت :

– مائـة فرنـك ليسـت كافيـة مـن أجـل هـذا الصغيـر. إنـه سـيعمل بعـد بضعـة سـنوات و يأتـى لنـا بالمـال. يجـب أن يكـون الراتـب مائـة وعشـرين فرنـكًا.

السـيدة «هوبيـار» ارتجفت فـى صبـر نافذ لكنهـا وافقـت علـى الفـور ولأنهـا تتعجـل الأمـر منحتهـا مائـة فرنـك علـى سـبيل الهديـة بينمـا بـدأ الـزوج فـى كتابـة العقـد. ولأن المحافـظ جارهمـا أتـى بسـرعة وأحضـرا الشـهود.

الزوجـة الثريـة حملـت الطفـل مبتهجـة كمـا لـو كان دميـة اشـترتها مـن المتجـر.

وقفـت أسـرة «توفـاش» علـى البـاب تتأمـل الأثريـاء وهـم يرحلـون. ربمـا نادمـان علـى الرفـض.

لـم يعـد أحـد يذكـر اسـم «جـون فيـلان». والـداه يذهبـان إلـى المحامـى كل شـهر للحصـول علـى المائـة وعشـرين فرنـك. دب الشـجار بـين الكوخـين المتجاوريـن لأن أسـرة «توفـاش» تتهـم «فيـلان» بالقـذارة والحقـارة. مـن حـين لآخـر تلتقـط أم «شـارلو» ابنهـا فـى حضنهـا وهـى تتقـول:

- لـم أبعـك، لـم أبعـك يـا صغيـرى. لا أبيـع أولادى. لسـت ثريـة لكننـى لا أبيـع أولادى.

مـرت أعـوام وأعـوام والأزمـة تشـتد بـين الكوخـين. الأم «توفـاش» تشـعر بالفخـر لأنهـا أرقـى و أعظـم مـن جيرانهـا لأنهـا رفضـت بيـع «شـارلو». كل مـن تتحـدث معهـم يحمـدون فعلهـا ويمدحـون نبـل أخلاقهـا.

أصبـح «شـارلو» فـى الثامنـة عشـرة مـن العمـر وهـو يشـعر بالفخـر والتعالـى بـين أصدقائـه لأن أهلـه لـم تبعـه.

أسـرة «فيـلان» تعيـش فـى بحبوحـة بينمـا أسـرة «توفـاش» بقيـت تعانـى البـؤس. ابنهمـا الأكبـر رحـل للخدمـة العسـكرية، ابنهمـا الثانـى توفـى وأصبـح «شـارلو» وحيـدًا مـع والديـه العجـوزان لإطعـام والدتـه و أختيـه الصغيرتـين.

أصبـح فـى العشـرين مـن العمـر. وفـى ذات صبـاح توقفت عربة تتـلألأ بـين الكوخـين وهبـط منهـا شـاب صغيـر يتفاخـر بسـاعته الذهبيـة وهـو يتأبـط ذراع سـيدة عجـوز بيضـاء الشـعر. قالـت لـه السـيدة:

- هنا يا بنى. هنا بيتك الثانى.

دخل الشاب إلى بيته فى أسرة «فيلان». كانت أمه العجوز تغسل ثوبها بينما الوالد ينعس فى الفراش. رفع العجوزان رأسيهما و قال الشاب الصغير:

- صباح الخير يا أبى. صباح الخير يا أمى.

وقفا مذعورين. سقطت قطعة الصابون من الفلاحة فى المياه و غمغمت:

- هل أنت ابنى؟ هل أنت ابنى؟

احتضنها الشاب وهو يكرر: صباح الخير يا أمى.

بينما ارتجف الأب وهو يقول بصوته الهادئ دائمًا كأنما قد مر عليه شهر واحد فقط دون رؤية ابنه:

- ها أنت قد عدت يا «جون».

بعد أن تم التعارف بينهم أراد الوالدان الخروج بصحبة ابنهما ليقدماه إلى أهل البلدة بفخر. ذهبوا إلى الخورى ومسؤول البلدية وكل الجيران.

وقف «شارلو» أمام كوخه يرقب ما يحدث. وعندما هبط المساء، وهو يتناول العشاء مع أهله قال:

– هل تعلمون أنكم كنتم أغبياء لأنكم سمحتم للسيدة بأخذ «فيلان» الصغير؟

قالت الأم فى استياء:

– أنا لا أبيع أولادى أبدًا.

لم يقل الأب شيئًا. قال «شارلو»:–

– أليست حياتنا بائسة؟

اندفع الأب فى غضب:

– هل تلومنا لأننا حافظنا عليك.

قال الابن:

– نعم ألومكم لأنكم أغبياء. أمثالكم يدفعون أولادهم للحياة فى بؤس. ما الذى سأرثه منكم.

بكت الأم الطيبة وسقطت دموعها فى الطبق ثم قالت:

– أنتحر إذًا لتربية الأطفال؟

قال الابن الثائر:

ـ أفضل الموت على هذا البؤس. عندما رأيت الآخرعلمت قدر نفسى وقدر معاناتى.

ثم هب واقفًا وقال:

- أعتقد من الأفضل ألا أبقى هنا لأننى سأظل ألومكم طوال الليل والنهار على هذا البؤس. لن أسامحكما أبدًا.

صمت العجوز وعاد الابن يقول:

- حياتنا قاسية جدًا. سأرحل بحثًا عن نصيبى.

كانت أسرة «فيلان» تحتفل بابنها بينما خرج «شارلو» واختفى فى عتمة الليل.

●●●

العصافير المغردة

حتى الآن حرم «أفانسال» تصد كل المحاولات اليائسة من البارون «جوزيف دى كرواسار» المُعجب بها. والآن يقيم لها الاحتفالات ورحلات الصيد فى قصره النورماندى.

الزوج «أفانسال» لا يرى شيئًا ولا يعرف شيئًا كالعادة. يعيش معزولاً عن زوجته بسبب ضعفه الجسمانى، وزوجته لا تسامحة أبدًا. الزوج قصير، أصلع، قصير الذراعين والرقبة والأنف وكل شىء.

زوجته علي النقيض، سيدة ضخمة شقراء، تستمع بقوة الشخصية والإدارة، ضحكاتها صاخبة فى وجه عاشقها الذى يطلق عليها على سبيل المداعبة «حرم التافة» وهو يدنو إليها فى حب وإعجاب. يبدو عاطفيًا بأكتافه العريضة ورقبته الضخمة وشاربه الأشقر الكثيف. هذا هو البارون «جوزيف دى كرواسار».

مع ذلك، هى لم تتفق معه على شىء حتى الآن. البارون ينهار أمامها. يقيم الاحتفالات ورحلات الصيد دائمًا، يقيم الولائم و يدعو النبلاء من القصور المجاورة.

كل يوم تنبح الكلاب وهى تجري فى الغابة لمتابعة الثعالب والخنازير البرية. أثناء الليل، كل ليلة تتلألأ الألعاب النارية المبهرة فى السماء لتداعب النجوم، بينما نوافذ الصالون تلقى بالضوء على الأرض الخضراء حيث تتراقص الظلال.

إنه الخريف، موسم رجال الشرطة. الأوراق ترتجف على أشجار الكازورينا مثل الطيور ونشتم فى الهواء رائحة الأرض الرطبة، الأرض العارية، كما نشتم رائحة اللحم العارى حينما يتساقط الجميع بعد الحفل الراقص.

فى ذات ليلة، فى الحفل، أثناء الخريف الأخير، قالت حرم «أفانسال» للسيد «كرواسار» الذى يداهمها بتوسلاته: إذا كان يجب أن أسقط صديقى، لن أسقط قبل سقوط الأوراق. فقال لها: لدى أعمال كثيرة يجب القيام بها فى هذا الصيف. أصبح يردد هذه الجملة المازحة كل يوم وهو يحاول التقرب منها. كسب خطوة فى قلب المعشوقة الجميلة التى تبدو أنها لا تقاوم إلا من أجل المظهر الاجتماعى.

فى إحدى رحلات الصيد الكبيرة قالت له و هى تضحك: لو نجحت في الصيد سيكون لك مفاجأة عندى.

هب واقفًا من الفجر. اصطحب مدربى كلاب الصيد كما أعد كلابًا أخرى علي سبيل الاحتياط. بدأ فى مراجعة كل شىء بنفسه لتحقيق النصر. عندما دقت أجراس البداية ظهر فى ملابس الصيد الضيقة الحمراء المزينة بالذهب. بدا صارمًا حازمًا، متوهج العينين، طازجًا قويًا كما لو أنه مستيقظ للتو من فراشه.

رحل الصيادون بصحبة الكلاب النابحة عبر الأدغال وبدأت الخيول تتحرك بخفة فى الأماكن الضيقة فى الغابات المتوحشة، يتبعهم العربات المصاحبة لهم من بعيد.

نجحت حرم «أفانسال» بمكرها فى الوصول إلى القرب من البارون عندما وصلوا إلى طريق طويل مستقيم تحفه أشجار السنديان من الجانبين. ارتجف البارون من الحب والقلق، يلقي بأذنه إلى ثرثرة السيدة الجميلة والأذن الأخرى إلى نباح الكلاب التى تبتعد. قالت:

- أنت إذًا لا تحبنى أبدًا؟

أجاب :

- لماذا تقولين ذلك؟

أجابت:

- لأنه من الواضح أنك مشغول بالصيد أكثر منى.

ارتجف وهو يقول:

- ألم تأمرينى بالخروج إلى الصيد بنفسى؟

أكملت السيدة بجدية:

- لم أكن اتوقع ذلك. يجب أن تصطاد الحيوان أمام عينيى.

انتشى الرجل. ضغط بساقيه وقفز الحصان. فقد البارون صوابه وقال هائمًا:

- اللعنة، هذا لن يحدث طالما بقينا هنا.

ثم راحت تتحدث معه برفق وهى تضع يدها على ذراعة أو تجامله كأنها تسرى عنه ثم قالت و هى تضحك:

- يجب أن تتم عملية الصيد الليلة و إلا ستخسر كثيرًا.

اتجها إلى اليسار فى طريق مظلل بالأشجار، وفجأة، لكى تتفادى فرع شجرة مالت نحوه حتى تلامس شعرها مع رقبته. ارتجف و قبلها فى اشتهاء.

لم تحرك ساكنًا، ظلت ثابتة حتى التقت الشفاه، ثم بسبب الارتباك أو الندم، ضغطت على حصانها ليجرى. ذهبا بعيدًا دون أن يتبادلا النظرات.

بدأ الاقتراب من معمعة الصيد. بدأت الكلاب تجرى عبر فروع الأشجار وظهر قطيع من الخنزير البرى. صرخ البارون فى نشوة الظفر:

- من يحبنى يتبعنى.

ثم اختفى فى الغابة كما لو كانت ابتلعته. لحقت بهم بعد بضع دقائق فى مكان مكشوف فى وسط الغابة. كان يقف ملطخًا بالوحل، سترته ممزقة والدماء تنزف من يديه بينما الحيوان ممددًا وسكين الصيد مغروسًا فى أكتافه.

تمت المعالجة بجوار المشاعل أثناء ليلة هادئة حزينة. ضوء القمر يحول النيران الحمراء إلى صفراء ونسمات الهواء تنشر رائحة الدخان فى المكان. الكلاب أكلت أحشاء الخنزير البرى، تنبح وتتصارع فيما بينها. مدربو الكلاب والصيادون يجتمعون حول الجريح الذى يتأوه ويتألم. انتشر الضجيج فى الليلة الصافية فى الغابة و ذهب صدى الصوت يتردد فى الأماكن البعيدة ليقلق الأيائل، بينما الذئاب تتابع الأرانب الرمادية حول المكان.

الطيور الليلية تحلق فوقهم وهى تصيح فى وحشية بينما النساء تأثرن كثيرًا بهذا الجو المهيب وهن ينحنين على ذراع الجريح، والأخريات ذهبن لمتابعة الكلاب إلى أن تنهى وجبتها.

الكل مُجهد من عناء هذا اليوم الشاق. حرم «أفانسال» قالت للبارون:

- صديقى، ألا ترغب فى التجول قليلاً؟

دون أن يجيب هب واقفًا وهو يرتجف لمتابعتها. وفجأة احتضن كل منهما الآخر؟ ذهبا يتجولان بخطوات بطيئة تحت غصون الأشجار الجافة بينما ضوء القمر ينساب بينهما برفق. التهبت مشاعرهما و فاضت رغبتهما حتى سقطا تحت إحدى الشجرات.

اختفى الألم، الكلاب المتخمة نامت على الطريق. قالت السيدة الجميلة: لنعود.

عندما وصلا إلى القصر غمغمت بصوت مرهق:

- أنا مرهقة جدًا، سأذهب للنوم صديقى.

فتح لها ذراعيه ليحصل على القبلة الأخيرة لكنها فرت هاربة و هى تقول كأنها تودعه:

- لا، أريد أن أنام... من يحبنى يتبعنى..

بعد ساعة أصبح القصر غارقًا فى الصمت تمامًا. خرج البارون من حجرته على أطراف أصابعه وطرق باب صديقته، ولأنها لم تجب فتح الباب برفق شديد.

كانت تجلس حالمة بجوار النافذة. ركع أمامها وراح يقبلها من خلال ثياب النوم. لم تقل شيئًا لكنها غرست أناملها فى شعره. فجأة فرت من بين يديه كأنما تذكرت شيئًا مهمًا، غمغمت بصوت جاف لكن منخفض: ساعود، انتظرنى. وأشارت بإصبعها إلى الفراش.

فقد صوابه، ارتجف وهو يخلع ثيابة وغاص فى الفراش مستمتعًا بالغطاء الناعم. لم تعد إليه. بالتأكيد تداعبه. أغمض عينيه و هو يحلم باللقاء الحار. لكن رويدًا رويدًا بدأت عضلات جسده ترتخى و عقله يتوقف و دفعه الإرهاق إلى النوم.

غط فى نوم عميق مثل كل الصيادين العائدين من الرحلة. نام حتى الفجر. فجأة سمع من النافذة النصف مفتوحة تغريد العصافير على الشجرة القريبة. فتح عينيه مذهولاً. شعر بجسد بجواره، كانت هى، التفت إليها بذهول و قال:

- ماذا؟ أين أنا؟ ماذا حدث؟

كانت مرهقة جدًا لأنها لم تنم لحظة واحدة طوال الليل. نظرت إليه بغضب وقالت بنبرة جافة تشبه النبرة التى تتحدث بها مع زوجها:

- لم يحدث شىء. العصافير تغرد. نم سيدى.

●●●

الابن

راح الصديقان يتجولان فى الحديقة المزهرة حيث تنتشر بهجة الربيع. أحدهما سيناتور والآخر عضو فى الأكاديمية الفرنسية. الاثنان جادان حازمان، يفكران بالمنطق، لكن يميلان إلى الاستعراض، إنهما من الطبقة الراقية ويتمتعان بشهرة كبيرة.

فى البداية تحدثا فى السياسية، تبادلا الآراء، ليس حول الأفكار بل حول الأشخاص. فى هذه المهنة الشخصيات العامة تفكر بالمنطق. ثم راحا يستعيدان بعض الذكريات. ثم صمتا واستكملا التجوال أحدهما بجوار الآخر منتشيًا بالهواء الرطب.

كان هناك زهرية ضخمة جميلة بها مجموعة كبيرة من الأزهار ترسل بالرائحة الجميلة فى النسمات بينما الحشرات تنثر حبوب اللقاح من الزهور فى شكل أتربة خفيفة لها رائحة مميزة.

توقف السيناتور يرقب السحب السابحة فى الفضاء ثم التفت إلى الأشجار الجميلة التى تنعم بأشعة الشمس وترسل حبوب اللقاح و قال:

– عندما نفكر أن هذه الذرات الغير محسوسة توجد الحياة فى مئات الأماكن البعيدة عن هنا نتعجب من هذا الأسلوب فى

التكاثر. الأشجار تتكاثر مثلنا و العجوز منها يموت بعد أن يخلق أجيال جديدة مثلنا.

– ثم توقف أمام شجرة الأبنوس التى ترسل بالرائحة الذكية وأضاف:

– آه! عزيزى يجب علينا الاهتمام بأطفالنا وهذا أمر مقلق ومحير، لكن الأشجار لا تقلق أبدًا على أطفالها.

قال الأكاديمى:

– ونحن أيضًا نفعل مثل الأشجار صديقى.

قال السيناتور:

– نعم، لا أنكر ذلك، نهمل أطفالنا أحيانًا، لكن على الأقل نعرفهم و هذا الشعور يتغلب علينا.

قال الأكاديمي:

لا، ليس هذا ما أقصده عزيزى. لا يوجد رجل فى الدنيا إلا يكون لديه أطفال مجهولون، نقول عنهم مجهولو النسب. هؤلاء يفعلون مثل الأشجار، يتكاثرون بدون وعى.

لو كنا نعيش مع كل النساء الذين نعرفهم لأصبحنا عاجزين عن حصر عدد أطفالنا مثل هذه الشجرة. من عمر الثامنة

عشرة إلى الأربعين، لو أحصينا عدد النساء الذين نعرفهم قد نصل إلى مائتين أو ثلاثمائة. حسنًا صديقى، من بين هذا العدد ألم تخصب واحدة على الأقل؟ ألم تلتقى يومًا وأنت تجلس مستمتعًا فى الحديقة بالأطفال الأوغاد الذين ينتمون إلى رجال شرفاء؟ كما أن هناك فتيات فى الأماكن الحقيرة، وسعيدة الحظ منهن من تعيش بجوار والدتها وفى النهاية تعمل خادمة عند الأسر الكبيرة. يجب أن نعلن أن كل العاهرات لديهن طفل أو طفلان مجهولو الأب. هؤلاء الأطفال أتوا بعد صفقة بعشرة أو عشرين فرنك. فى كل المهن نعمل حساب المكاسب والخسائر. هؤلاء الأطفال هم خسائر هذه المهنة. من هم السادة؟ أنت وأنا، ونقول نحن الرجال كما ينبغى أن يكون الرجال. هذه هى نتيجة سهرة عشاء مازحة ممتعة فنندفع فى المغامرات المثيرة. اللصوص، المتسكعون، كل البؤساء، إنهم أطفالنا. ونحن نستفيد منهم أيضًا لأنهم يلدون لنا جيلاً جديدًا نستمتع به. اسمع، من ناحيتى، بهذه المناسبة أعلم حكاية غريبة سأقصها لك. هذه الحكاية تؤلمنى كثيرًا، إنها شكوك مستمرة و مقلقة تثير فزعى.

عندما كنت فى الخامسة والعشرين من العمر، دعانى أحد أصدقائى، وهو الآن سفيرًا، إلى رحلة إلى بريطانيا سيرًا على الأقدام.

بعد خمسة عشر أو عشرين يومًا من السير، وبعد زيارة الساحل الشمالى و جزء من «فينيستار» وصلنا إلى «دوارناز» ومن هناك إلى المضيق عن طريق «تريباس». بتنا فى قرية صغيرة ينتهى اسمها بحرفى «أوف». عندما سطع الصباح كان صديقى يعانى من إرهاق شديد فى فراشه. أقول فى الفراش بحكم العادة لأن فراشنا لم يكن إلا كومة قش.

من المستحيل أن تكون مريضًا فى هذا المكان. دفعته إلى القيام و وصلنا إلى «أوديارن» فى الساعة الرابعة أو الخامسة مساءً.

فى اليوم التالى تحسنت حالته ورحلنا، لكن كان يجب أن نكون فى منتهى الحذر فى الطريق. وصلنا إلى «جسر «لابي».

هناك يوجد، على الأقل ، فندق صغير. اتجه صديقى إلى الفراش وقال الطبيب الذى أتى من «كمبر» إنه يعانى من حمى شديدة دون أن يحدد طبيعتها.

تعرفون «جسر لابى»؟ لا. حسنًا. إنها من أكثر مدن بريطانيا تحفظًا، مفتوحة على مضيق «موربيهان». فى هذا المكان نشتم رائحة الأخلاق العتيقة، الأساطير والعادات البريطانية. حتى اليوم لم تتغير هذه المنطقة. أقول لك حتى الآن لأننى أذهب إلى هناك كل عام.

يوجد هناك قصر عتيق محاط بالأبراج فى حالة كئيبة، لا يوجد بداخله إلا الطيور المتوحشة. يوجد هناك نهر صغير تمر به بعض السفن. الشوارع ضيقة، البيوت عتيقة. الرجال يضعون القبعات والسترة وأربع قطع أخرى من الملابس. الأولى فى حجم قبضة اليد لستر الأكتاف و الأخيرة تقف فوق المؤخرة.

هناك الفتيات جميلات طازجات، صدورهن مدببة خلف السترة التى تشبه الدرع، ثيابهن لا تسمح برؤية الرقبة من شدة الاحتشام. يرتدين الملابس بطريقة غريبة، على الصدغ يضعن لوحين ملونين تحيط بالوجه، شعورهن مغطاة بطرحة تنسدل خلف ظهورهن وفوق ذلك طرحة أخرى مطرزة غالبًا بالذهب أو الفضة.

الخادمة فى فندقنا عمرها ثمانية عشر عامًا على أفضل تقدير، زرقاء العينين، أسنانها قصيرة مضمومة تظهر دائمًا عندما تضحك، أسنانها صلبة قادرة على طحن الجرانيت. لا تعرف أية لغة أخرى غير الإنجليزية وهذا حال معظم السكان فى هذا المكان.

حالة صديقى الصحية لم تتحسن، لذلك منعه الطبيب من السفر و أكد أنه يحتاج إلى راحة تامة. بقيت بجواره لعدة أيام. الخادمة الصغيرة تأتى دائمًا لتقديم العشاء أو المنقوع الخاص لمعالجة صديقى.

داعبتها قليلاً و يبدو أنها سعدت بذلك، لكننا لم نتفق على أى شىء لعدم وجود لغة مشتركة.

فى ذات ليلة، لأننى تأخرت كثيرًا بجوار المريض، التقيت الفتاة فى الممر وهى عائدة إلى حجرتها. حدث ذلك أمام باب حجرتى مباشرة. هكذا بدون أى تفكير فيما أفعله، أو ربما على سبيل المزاح، أمسكت بها من وسطها. قبل أن تستعيد عقلها من الصدمة دفعتها إلى حجرتى وأغلقت الباب. نظرت إلىّ مذعورة مرتجفة، لم تجرؤ على الصراخ خوفًا من العار، أو ربما خوفًا من سيدها أو والدها.

فعلت ذلك وأنا أضحك لكن عندما أصبحت فى حجرتى شعرت بالرغبة فى امتلاكها. حدث ذلك ببطء شديد ولفترة طويلة، تصارعنا جسد أمام جسد، تشابكنا بالأذرع والأنفاس اللاهثة و الجسد المبتل بالعرق. آه! كانت ترفرف بكل جسدها وأنا أحاول احتضانها، ثم نغرق فى الصمت بضع لحظات خوفًا من أن يستيقظ أحد، ثم نعود إلى المناوشات مرات كثيرة لكنها ترفض الاندماج الكامل. بعد أن أُرهقت سقطت، وما أن عاونتها على النهوض حتى جرت نحو الباب و هربت.

لم ألتقيها فى الأيام التالية إلا مرات قليلة. لم تسمح لى بالاقتراب منها. ثم شُفى صديقى و أصبح علينا الرحيل. قبل السفر بليلة واحدة رأيتها فى منتصف الليل وهى تدخل حجرتى حافية مرتدية ملابس النوم.

ألقت بنفسها فى أحضانى وراحت تقبلنى بعنف وهى تبكى حتى الصباح. منحتنى كل ما تستطيع امرأة أن تمنحه لرجل لا تعرف لغته.

بعد ثمانية أيام نسيت هذه المغامرة. من المعلوم أن معظم الخادمات فى الفنادق يفعلن ذلك مع المسافرين. أصبحت فى الثلاثين من العمر و لم أفكر فى هذا الموضوع أبدًا.

فى عام ١٨٧٦، عدت بالمصادفة فى جولة سياحية إلى بريطانيا و ذلك بعد أن قرأت عدة كتب عنها ورغبت فى اكتشاف أعماق الريف.

يبدو أنه لم يتغير شىء. القصر العتيق مازال كما هو بجدرانه الرمادية. فى مدخل المدينة مازال الفندق الصغير لكن تم تجديده إلى الأسلوب الحديث. فى مدخل الفندق استقبلتنى فتاتان فى الثامنة عشرة من العمر، ناضجتان جميلتان فى زى الخادمات و فى آذانهما الأقراط الفضية.

فـى السادسـة مسـاءً كنـت علـى المائـدة لتنـاول العشـاء، ولأن صاحـب الفنـدق نفسـه هـو الـذى يخدمنـى قلـت لـه:

– هـل تعلـم المُـلاك السـابقين لهـذا الفنـدق؟ لقـد قضيـت هنـا عشـرة أيـام منـذ ثلاثـين عامًـا. أحدثـك عـن أحـداث قديمـة.

أجاب:

- إنهم أهلى سيدى.

بـدأت التـودد إليـه فـى الحديـث كمـا لـو كان صديقًـا قديمًـا فقـال:

– أتذكـر ذلـك جيـدًا. فـى هـذا الوقـت كنـت فـى الخامسـة عشـرة أو السادسـة عشـرة مـن العمـر. كانـت حجرتك هنـا و حجـرة صديقـك أصبحـت حجرتـى الآن.

هكذا استعدت كل الذكريات مع الخادمة الصغيرة. سألته:

– هـل تذكـر الخادمـة الصغيـرة التـى كانـت تعمـل عنـد والـدك؟ إن كانـت ذاكرتـى سـليمة، كانـت زرقـاء العينـين و أسـنانها قويـة.

اجاب صاحب الفندق:

– نعم سيدى. لقد ماتت فى فراشها بعد ذلك.

ثم أشار إلى رجل نحيف أعرج فى الحديقة بجوار السباخ وقال:

- هذا هو ابنها.

قلت و أنا أضحك:

- ليس وسيمًا و لا يشبه أمه. يشبه أباه بلا شك.

قال صاحب الفندق:

– بالتأكيد، لكن لا نعلم أباه. ماتت قبل أن تفصح عنه ولا أحد هنا يعرف أصله. ذُهلنا جميعًا عندما علمنا بحملها. لم يصدق أحد ذلك.

شعرت برجفة خفيفة، نغزة مؤلمة فى القلب، حزن ثقيل. التفت أرقب الرجل الذى يعمل فى الحديقة. إنه يضع الآن المياه أمام الأحصنة، يحمل جرادل المياه وهو يعرج بساقه. معاناته فى ساقيه واضحة، إنها أقصر من الطبيعى. يبدو تافهًا حقيرًا قذرًا بشعره الأصفر الطويل الذى ينساب على وجنتيه.

صاحب الفندق أضاف:

– الموضوع ليس خطيرًا سيدى. نحتفظ به هنا على سبيل الشفقة. أليس هذا أفضل من الضياع فى الشوارع؟ ليس له أب و لا أم و لا مال. والداى احتفظا بهذا الطفل مشفقين عليه لكنه ليس ابنهما هل تفهمنى؟

لم افهم شيئًا.

ذهبت للنوم فى حجرتى القديمة و أنا أفكر فى هذا السؤال المفزع: ماذا لو كان ابنى؟ هل قتلت هذه الفتاة وأنجبت هذا الولد؟ ممكن، وماذا بعد؟ سأتحدث مع هذا الرجل وأعرف تاريخ الميلاد. لو كان الفارق شهرين فقط ستذهب كل شكوكى.

ذهبت للحديث معه فى اليوم التالى لكنه لا يتحدث الفرنسية، ويبدو أنه لا يفهم أى شىء، يجهل سنه، علمت ذلك من الخادمة التى طلبت منها أن تترجم له. يبدو أمامى أبله، يضحك بغباء لكن ضحكته تشبه ضحكة والدته.

صاحب الفندق بدأ يستعلم عن مولد هذا البائس. لقد وُلد بعد ثمانية أشهر وستة وعشرين يومًا من رحيلى، لأننى أتذكر جيدًا أننى وصلت هنا يوم ١٥ أغسطس. مكتوب فى الأوراق مجهول الأب و الأم تُدعى: «جان كيراديك».

بدأ قلبى يخفق بشدة. لا أستطيع الحديث من شدة الصدمة. أرقب هذا الأحمق بشعره الأصفر الخشن مثل فراء البهائم. الأحمق يندهش من نظراتى له. توقف عن الضحك وهو يبحث عن مكان يذهب إليه.

أمضيت النهار كله أتجول على النهر وأفكر فى الأمر بألم شديد. لكن فى ماذا أفكر؟ لا يوجد شىء محدد. أمضيت

ساعات وساعات أقارن بين كل الاحتمالات حتى ثارت أعصابى. كل الاحتمالات تؤكد إنه ابنى.

لم أستطع تناول العشاء و اتجهت إلي حجرتى مباشرة. لم أستطع النوم، عندما داهمنى النوم طاردتنى الكوابيس. رأيت هذا الأحمق وهو يضحك فى وجهى و يقول: أبى. ثم تحول إلى كلب وراح يعض ساقى. حاولت إنقاذ نفسى منه لكنه يتبعنى دائمًا. وبدلاً من النباح يحدثنى، ثم رأيته وسط زملائى فى الأكاديمية وهو يؤكد لهم إنه ابنى. قال أحد الزملاء: هذا واضح جدًا من التشابه بينكما. بالفعل رأيت هذا الوجه يشبهنى. استيقظت وقررت رؤية هذا الرجل للتأكد من الشبه بيننا.

فعلت كالمعتاد وذهبت إلى الكنيسة (كنا فى يوم الأحد). منحته بضعه مليمات وأنا أتأمله، ضحك بطريقة غبية، أخذ المال ورحل وهو يقول كلمات غريبة لا أفهمها. بدت أنها كلمات شكر.

مر اليوم وأنا مازلت فى نفس الحيرة. عندما اقترب المساء طلبت صاحب الفندق وأخبرته بكل حذر وأناقة أننى أهتم بهذا الكائن المسكين الذى لا يملك شيئًا وأرغب فى عمل شىء من أجله.

قال الرجل:

– لا تفكر فى ذلك سيدى، إنه لا يريد شيئًا. أنا أستخدمه للعمل فى حظيرة الخيول، هذا كل ما يستطيع فعله. فى مقابل

ذلك أطعمه و أوفر له المبيت مع الأحصنة ولا يريد أكثر من ذلك. لو كان لديك ملابس قديمة اتركها له لكنها ستتمزق تمامًا خلال ثمانية أيام.

فى المساء، كاد هذا الغبى أن يشعل النيران فى المنزل بعد أن شرب كثيرًا. لقد ترك الأحصنة تمرح بالقرب من النيران ونام تحت المطر.

فى الصباح رأيت صاحب الفندق يرجونى ألا أترك شيئًا. إنه مجنون. يندفع فى الشراب إذا امتلك مليمين فقط. ثم أضاف: المال سيقتله. ما أن يحصل على المليمات من المسافرين حتى يذهب إلى الحانة مباشرة.

أمضيت ساعات فى الشرفة وأنا ممسك كتاب كأننى أقرأه لكنى فى الحقيقة لم أكن أفعل شيئًا سوى مراقبة هذا الوغد، ابنى! ابنى! أحاول أن أرى إذا كان به شىء ما منى. بعد جهد كبير لاحظت خطوط فى وجه وأنفه تشبهنى.

لم يكن من الممكن الاستمرار فى الإقامة كثيرًا. رحلت ممزق القلب بعد أن تركت لصاحب الفندق بعض المال لرعاية هذا الكائن الغريب.

أعيش فى هذه الشكوك منذ ست سنوات. كل سنة تدفعنى قوة غريبة للذهاب إلى هذا المكان لرؤية هذا الوغد بجوار السباخ. أعتقد أنه يشبهنى وفى كل عام تزيد معاناتى أكثر.

حاولت تربيته وتأهيله. حاولت أن أعيده إلى الحياة الآدمية لكنه يسرف فى الشراب مجرد الحصول على بضعه مليمات وإن لم يجد المال يبيع ثيابه من أجل الشراب.

منحت صاحب الفندق بسخاء للإنفاق عليه لكنه قال لى فى النهاية:

– كل ماتفعله سيضيع هباء. يجب معاملته مثل سجين. حتى لو كان إنسانًا فهو ابن زنى. إذا كنت ترغب فى فعل الخير اختر أحد أولاد الشوارع و تبناه.

ماذا اقول له؟

أحيانًا أشعر برغبة جارفة لتقبيله رغم أننى لم ألمسه أبدًا حتى الآن.

صمت الأكاديمى بينما غمغم صديقه السياسى:

- بالفعل يجب الاهتمام قليلاً بالأطفال مجهولى النسب.

أضاف السيناتور:

- شىء جميل أن يكون لديك خمسة و عشرون عامًا وتنجب طفلاً مثل هذا.

●●●

القديس «أنطوان»

يدعونه القديس «أنطوان» لأن اسمه «أنطوان» ، وربما لأنه رجل طيب، ودود، مرح، لطيف، قوى، شره، يشرب كثيرًا، كما أنه يعشق الخادمات رغم بلوغه ستين عامًا.

كان فلاحًا مشهورًا فى منطقة «كو»، يتمتع بصدر عريض وبطن منتفخ وساقين نحفيتين حتى تندهش من قدرتهما على حمل هذا الجسد الضخم.

أرمل، يعيش بمفرده مع خادمته واثنين من المديرين يعملان فى مزرعته، مخلصان فى إدارة أملاكه وتربية البهائم وحصاد الأرض. ابناه وبناته الثلاثة متزوجون من أجل المنفعة، يعيشون فى الضواحى. يأتون مرة واحدة كل شهر لتناول العشاء مع الأب. مشهور بالبأس و الصلابة فى كل المدن القريبة حتى أصبح مضربًا للأمثال فيقولون هذا الرجل قوى مثل القديس «أنطوان».

عندما حدث الغزو البروسى كان القديس «أنطوان» فى الملهى الليلى يتوعد بالتهام الجيش الغازى. لأنه نورماندى أصيل فهو يتمتع بالقليل من الندالة والجبن. ضرب المنضدة الخشبية بيده فارتجفت ورقصت الأكواب والأطباق. صرخ

بينما وجهه يحتقن بالدم و عيناه الماكرة تنم عن الغضب والقوة: يجب أن ألتهم هؤلاء الأوغاد. كان يعلم أن البروسيين لن يصلوا إلى «تاتفيل» لكن عندما علم بوصولهم إلى «روتو» لم يخرج من بيته وراح يرقب الطريق من النافذة الصغيرة فى المطبخ بحذر شديد خوفًا من الحربة.

فى ذات صباح، وهو يتناول الإفطار مع مستخدميه فُتح الباب وظهر القائد «شيكو» متبوعًا بجندى ذا قبعة سوداء من النحاس. هب القديس «أنطوان» واقفًا بينما الجميع يرقبه، ينتظرون منه مهاجمة البروسيين. لكنه صافح القائد الذى يقول له: هذا الجندى سيقيم معك يا قديس «أنطوان»، لقد أتى الجنود الليلة ولا داعى للحماقات. إنهم قادرون على قتل الجميع واحراق كل البلدة لأتفه الأسباب، أنا أحذرك. قدم له الطعام. يبدو أنه شرهًا. سأذهب إلى الآخرين. على كل بيت أن يستضيف أحد الجنود.

قال القائد ذلك و خرج.

أصبح الأب «أنطوان» شاحبًا وهو يرقب الجندى البروسى. الجندى ضخم طافحًا بالصحة والنضارة، عيناه زرقاوان، أشقر، لحيته الطويلة تسقط على صدره. يبدو أحمقًا إنطوائيًا كأنه طفل وديع. النورماندى الخبيث سمح له بالدخول مباشرة

وأشـار لـه بالجلـوس ثـم سـأله: هـل تريـد الإفطـار؟ الغريـب لـم يفهـم. اسـتجمع «أنطـوان» شـجاعته و وضـع أمامـه طبقًـا ممتلئًـا بالطعـام وهـو يقـول: كل هـذا أيهـا الخنزيـر الكبيـر.

راح الجنـدى يلتهـم الطعـام بشـراهة بينمـا شـعر الفـلاح بالنصـر. شـعر أنـه اسـتعاد شـهرته. غمـز بعينيـه إلـى مسـتخدميه الذيـن يرقبـون الغريـب. بالرغـم مـن خوفهـم الشـديد إلا أنهـم يريـدون الضحـك.

بعـد أن ابتلـع الجنـدى كل مـا فـى الطبـق راح القديس «أنطوان» يقـدم لـه طبـق آخـر فالتهمـه بنفـس السـرعة لكنـه تقهقـر أمـام الطبـق الثالـث بينمـا راح الفـلاح يجبـره علـى الأكل و هـو يقـول: ابتلـع هـذا أيضًـا يجـب أن تـأكل دون أن تسـأل خنزيـرى الجميـل.

لـم يفهـم الجنـدى إلا أنهـم يرغبـون فـى أن يـأكل كل الطعـام. ضحـك وهـو يشـير إلـى بطنـه بمـا يعنـى أنـه شـبع تمامًـا.

أصبـح القديـس «أنطـوان» يعاملـه بمـودة. ضـرب بطنـه وهـو يضحـك و يصيـح: مـاذا يوجـد فـى كـرش خنزيـرى؟ وفجـأة التـوى واحتقـن وجهـه بالـدم وأصبـح عاجـزًا عـن الـكلام. الفكـرة منعتـه مـن الضحـك: هكـذا... هكـذا. القديـس «أنطـوان» وخنزيـره. أنـت خنزيـرى. انفجـر المسـتخدمون الثلاثـة فـى الضحـك.

كان العجوز سعيدًا جدًا وهو يقدم له أقوى الخمور. راحوا يشربون نخب الغريب الذى بدا سعيدًا مبتهجًا والقديس «أنطوان» يصرخ فى وجهه: إنها أقوى الخمور، هل تشرب هكذا فى بيتك؟

منذ هذا اليوم أصبح الأب «أنطوان» لا يخرج من بيته بدون هذا البروسى. أصبح هذا هو كل همه، هذا هو الانتقام. الانتقام من هذا الضخم الخبيث. أصبحت كل البلدة التى كانت ترتجف من الخوف تضحك عندما ترى الغازى وهو يسير خلف القديس «أنطوان». فى الحقيقة لم يحدث هذا من قبل ولو على سبيل المزاح. لا أحد يستطيع ذلك إلا القديس «أنطوان».

أصبح يذهب إلى الجيران كل صباح مصطحبًا هذا الألمانى و يقدمه للناس و هو يضرب على كتفه مبتهجًا: هذا هو خنزيرى، انظروا كيف سمنته. يضحك الفلاحون فيقول «أنطوان»:

- سأبيعه لك يا «سيزار» بثلاثة جنيهات ذهبية.
- ساشتريه يا «أنطوان» و سأدعوك لأكل النقائق المصنوعة من دمه.
- أنا لا أريد إلا الأرجل.
- أترك لى البطن، لا يوجد فى بطنه إلا الدهون.

أصبح الجميع يتغامزون فيما بينهم وهم يضحكون بصوت منخفض خوفًا من أن يكتشف البروسى أنهم يسخرون منه. «أنطوان» فقط هو الذى يتجاسر عليه كل يوم. يضربه علي فخده و هو يقول: لا يوجد إلا الدهون. ثم يضربه على مؤخرته وهو يصرخ: ما كل هذا اللحم؟ يضربه على ظهره ويقول: يصل وزنه إلى ستمائة و بدون نفايات.

أصبح يقدم الطعام إلى خنزيره فى كل مكان يذهب إليه. إنها المتعة الكبرى، التسلية المفضلة كل يوم. يقول لجيرانه: قدموا له ماشئتم، يلتهم كل شىء. أصبح الجيران والأصدقاء يقدمون له الخبز والزبد والبطاطس و بقايا الطعام البارد والسجق.

الجندى أحمق و هادئ. يأكل فى أدب سعيدًا بهذا الاهتمام. مرض لأنه لا يرفض شيئًا. سمن حتى ضاقت سترته وهذا يبهج القديس «أنطوان» فيكرر: أتعلم يا خنزيرى؟ يجب أن نعد لك قفصًا جديدًا.

بمرور الأيام أصبحا صديقين. عندما يذهب العجوز لمتابعة أعماله فى الضواحى يذهب معه البروسى لسبب واحد هو متعة مصاحبته.

الأيام رتيبه مملة و كان الشتاء قاسيًا فى كل أنحاء فرنسا عام ١٨٧٠.

الأب «أنطوان» الذى يستعد لكل شىء قبل حدوثه و يحسن استغلال الفرص، لاحظ أنه سيعانى عجزًا فى السباخ لأعمال الخريف. اشترى ذلك من جاره الذى يعانى ضائقة مادية. هكذا أصبح عليه الخروج كل يوم بعربته لنقل السباخ.

قبل الغروب يذهب كل يوم إلى «هول» على بعد نصف فرسخ مصاحبًا خنزيره. كل يوم يعتبر عيد لإطعام الحيوان. أصبح الناس يتجمهرون حوله مثلما يفعلون فى الكنيسة يوم الأحد من أجل الاستمتاع بإطعامه.

مع ذلك بدأ الجندى يرتاب فى الأمر. عندما يضحك الناس كثيرًا يرقبهم بنظرات قلقة و أحيانًا يستشيط غضبًا.

فى ذات ليلة، رفض ابتلاع قطعة إضافية وهم بالوقوف، لكن القديس «أنطوان» منعه بيده القوية على كتفه وأجلسه على المقعد بعنف حتى كاد المقعد أن يتحطم.

دبت عاصفة من البهجة و «أنطوان» لجم خنزيره كأنه يعتنى به ثم أعلن: طالما أنك لا تريد الطعام يجب أن تشرب. جرى أحدهم لشراء زجاجة الخمر.

أدار الجندى عينيه فى خبث لكنه شرب. شرب كما يريدون بينما القديس «أنطوان» يمسك برأسه ليجبره على الشراب.

احمر وجه النورماندى مثل الطماطم، اشتعلت نظراته، يملأ الأكواب و يصبها فى فمه وهو يقول: فى نخبك. وراح البروسى يشرب كاس من الكونياك تلو الآخر دون أن يقول شيئًا.

كانت مواجهة، معرفة، انتقام. راحوا يتنافسون فيما بينهم ممن سيشرب أكثر. لم تنته المنافسة إلا بعد انتهاء الزجاجة. لكن لم يُهزم أى منهما. انصرفا بهدوء خطوة بخطوة. سنعود إلى المنافسة غدًا.

تبخترت العربة على الطريق تجرها الأحصنة، بدأ الثلج فى السقوط، السماء بدون قمر، تتلألأ حزينة بالبرق الخاطف المميت. البرد قرص الرجلين و ضاعف من شعورهما بالسكر. القديس «أنطوان» ليس سعيدًا لأنه لم يحصل على النصر الذى يبغيه. راح يخبط خنزيره بكتفه مع إرتجاجات العربة ليسقطه بينما البروسى يقاوم وهو يتفوه ببضع كلمات ألمانية تدفع الفلاح إلى الضحك. فى النهاية غضب البروسى و لكمه بقبضة مفزعة جعلت العربة تتراقص.

كانت الخمر قد لعبت برأس الفلاح فراح يرج الجندى من ذراعيه وكل جسده، ثم تأمله بضع لحظات كأنه يتأمل طفلاً ثم ألقاه فى الطريق وهو يضحك مبتهجًا بفعلته.

لكن الجندى هب واقفًا بسرعة، عارى الرأس بعد أن تدحرجت قبعته. أشهر سيفه متجهًا إلى الأب «أنطوان».

عندما رأى الفلاح ذلك ضربه بالكرباج الذى كان متينًا مثل أعصاب الأبقار. ثم خطف سلاحه ودفعه بعنف. شعر بالخوف وهو يرقبه بذهول. أصبح الجندى ممددًا على الأرض، ثابتًا، عيناه مغلقة بينما دمه يسيل على الجليد.

فقد صوابه بينما الخيول تجر العربة بهدوء و ثبات.

ما الذى سيحدث؟ سيقتلونه! سيحرقون أرضه ويخربون البلده! ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ كيف أخفى جثة القتيل؟ كيف أضلل البروسيين؟ سمع أصواتًا من بعيد، من الجليد الصامت. كاد أن يُجن من الذعر. أخذ القبعة الخاصة بضحيته وألقى بها فى الخرائب. رفع الجثة ووضعها فوق السباخ. لم يستعد وعيه إلا بعد أن عاد إلى منزله.

عندما وصل إلى فناء منزله لاحظ الضوء فى إحدى النوافذ. خادمته لم تنم بعد. عاد بعربته إلى حفرة السباخ.

انتوى أن يفرغ الحمولة فى الحفرة، ستسقط الجثة فى الحفرة ويهيل عليها السباخ.

فعل ما كان يتخيله. أصبحت الجثة تحت السباخ ثم راح يغطيها بالشوكة ثم غرسها فى الركن. نادى أحد مستخدميه وأمره بوضع الخيول فى الحظيرة ودخل حجرته.

دخل إلى الفراش وهو يفكر فيما يجب أن يفعله لكن لم تأته أية فكرة. نمت مخاوفه وهو ثابت فوق الفراش. هل سيقتلونه؟ تصبب منه العرق واصطكت أسنانه. هب واقفًا وأصبح عاجزًا عن العودة للفراش.

اتجه إلى المطبخ و أخذ زجاجة الخمر و صعد إلى حجرته. شرب كأسين كبيرين بالإضافة إلى ما شربه من قبل فزادت حدة السكر لكن نفسه لا تهدأ أبدًا وراح يلعن الرب.

راح يتجول في حجرته بحثًا عن أية وسيلة للخداع، عن أى تفسيرات ومبررات. من حين لآخر يضع يده على فمه ليعيد قلبه إلى مكانه. لا يجد أى مخرج من هذه الورطة.

فى منتصف الليل بدأ كلب الحراسة الشرس فى النباح وهو ينظر إلى الحفرة. ارتجف الأب «أنطوان». الكلب سيفضح الأمر بسرعة. انهار فوق المقعد بينما الكلب مازال ينبح بشدة حتى ثارت أعصابه.

دقت الساعة التى فى الطابق الأرضى تشير إلى الخامسة صباحًا. أصبح الفلاح على وشك الجنون. ذهب ليطلق سراح الكلب حتى لا يسمعه أحد. فتح الباب واندفع فى الظلام.

مازال الجليد الأبيض يتساقط و بدت بيوت الفلاحين مثل بقع سوداء بين الجليد. اتجه إلى مسكن الكلب وحرره فجرى وتوقف أمام حفرة السباخ مباشرة بينما شعره يقف فى عصبية.

ارتجف القديس «أنطوان» من خصلة شعره حتى إخمص قدمه. غمغم: ما الذى يحدث هناك؟ اندفع فى الظلام الغامض فرأى مشهدًا غريبًا. رجل يجلس فوق حفرة السباخ.

تأمله فى رعب لكنه لمح فجأة شوكته مغروسة فى مكانها. انتزعها و اقترب فى زعر لمعرفة الحقيقة.

إنه هو، البروسى خرج من الحفرة و يجلس تحت الجليد المتساقط بينما الدماء تنزف منه كان يعانى السكر واللكمات. يبدو كأنه لا يفهم شيئًا. عندما رأى صاحبه بدا كأنه بقرة مستأنسة فقال «أنطوان»:

- آه أيها الخنزير! لم تمت! ستحاكمنى الآن.. انتظر..

هجم على الألمانى، دفعه بالشوكة بكل قوته، غرس كل الشوكة فى صدره. سقط الجندى و هو يصرخ بشدة ويلفظ

أنفاسه بينما انتزع الفلاح الشوكة و راح يطعن البطن بعدة ضربات ثم الرقبة. كان يضرب بشراسة و انهالت الدماء بغزارة. ثم توقف برهة وهو يتأمل القتيل.

بدأ ضوء الشمس فى السطوع وبدأت الديوك فى الصياح وانهمك «أنطوان» فى دفن الرجل. حفر حفرة عميقة وألقى بالجثة. ثم هبط الجليد ليخفى كل أثر لما حدث.

أعاد غرس الشوكة فى الأرض وعاد إلى الدار. أكمل زجاجة الخمر وغط فى نوم عميق.

استيقظ نشيطًا متفتحًا. ثم راح يجرى فى البلدة لمدة ساعة وهو يسأل الناس عن جنديه. ذهب إلى القائد الألمانى و سأله: لماذا سحبت منى الجندى؟

ولأن الجميع يعلم علاقات «أنطوان» ونفوذه، لم يوجه له أحد الاتهام لكنهم اتهموا جنديًا عجوزًا متقاعدًا يمتلك فندقًا صغيرًا فى القرية المجاورة وله ابنة جميلة وأعدموه.

●●●

مغامرة «والتر شنافز»

منذ وصوله إلى فرنسا مع القوات الغازية، «والتر شنافز» يعتبر أكثر الرجال بؤسًا. ضخم، ثقيل الخطوات، يعانى كثيرًا من قدميه الضخمتين المفلطحتين. مع ذلك فهو رجل مسالم يحب الحياة. ليس كريمًا أبدًا ولا دمويًا. أب لأربعة أطفال يحبهم كثيرًا و زوج لشابة شقراء يمنحها الحنان و العناية والقبلات كل ليلة. يستيقظ متأخرًا و ينام مبكرًا. يأكل الطعام الجيد ببطء ويشرب البيرة فى الحانات. يعتقد أن كل شىء فى الوجود هادئ ويختفي مع مرور الأيام. ينطوى قلبه على كراهية شديدة، فطرى ومتعقل فى نفس الوقت. بالنسبة للبنادق والمسدسات والحراب، خاصة الحراب، يعتقد أنه يعجز عن الدفاع عن نفسه بسبب كرشه الضخم.

عندما ينام على الأرض أثناء الليل متدثرًا بمعطفه بجوار رفاقه الذين يشخرون أثناء النوم، يفكر فى أقاربه الذين تركهم هناك وفى مخاطر الطريق: إذا قتل، ماذا سيحدث للصغار؟ من سيطعمهم و يربيهم؟ ليس ثريًا، بل استدان قبل سفره ليترك لهم بعض المال. يبكى من حين لآخر حزنًا عليهم.

فـى بدايـة المعركـة شـعر بالضعـف فـى سـيقانه لدرجـة أنـه يسـقط أحيانًـا. فـى هـذه اللحظـة يخشـى أن تختـرق كل الاسـلحة كل أجـزاء جسـده. يقشـعر بدنـه عنـد سـماع فرقعـة الطلقـات.

منذ بضعة شهور يعيش فى رعب و قلق.

وحدتـه اتجهـت إلـى النورمانـدى وبعـد مناوشـات بسـيطة نجحـوا فـى الاسـتيلاء علـى جـزء مـن البلـد. ثـم انسـحبوا بعـد ذلـك. يبـدو كل شـىء هـادئ فـى الحقـول. لا شـىء يـدل علـى أن هنـاك مقاومـة تسـتعد.

هكذا هبـط البروسـيون بهـدوء إلـى الـوادى الضيـق الذى يقطع مخـرات السـيول العميقـة. و فجـأة داهمتهـم المقاومـة الفرنسـية العنيفـة، يحملـون الكثيـر مـن البنـادق، خرجـوا عليهـم مـن الشـقوق ومخـرات السـيول.

وقـف «والتـر شـنافز» ثابتًـا مذهـولاً ضائعًـا حتـى أنـه لـم يفكـر فـى الهـرب. ثـم إجتاحتـه رغبـة مجنونـة فـى الاستسـلام. لكنـه يعلـم أنـه سـيتحرك مثـل السـلحفاة بالمقارنـة مـع الفرنسـيين النحفـاء الذيـن يقفـزون بخفـة مثـل قطيـع الماعـز. ولاحـظ وجـود حفـرة عميقـة مليئـة بالأعشـاب البريـة الجافـة. قفـز فـى الحفـرة دون أن يفكـر فـى العمـق مثلمـا نقفـز مـن الجسـر إلـى النهـر.

سقط فى الحفرة مثل سهم عبر طبقة سمكية من الأشواك مزقت وجهه ويديه ثم إصطدم بعنف بالأرض الصخرية.

رفع ناظريه فرأى السماء خلال الثقب الذى تسبب فيه. كان من الممكن أن يموت فى هذه الحفرة لكنه جاهد كثيرًا بأطرافه الأربعة لتسلق الأشواك بأسرع وقت حتى وصل إلى سطح الأرض. القوات المتحاربة ابتعدت الآن فجلس وسط الأعشاب مثل الأرنب.

فى البداية سمع ضجيج المعركة يبتعد، ثم خفت الضجيج شيئًا فشيئًا إلى أن اختفى تمامًا و هبط الصمت الكثيف.

فجأة شعر بحركة قريبة منه. ارتجف فى ذعر ثم اكتشف أنه عصفور صغير يقف على فرع شجرة و يقلب الأوراق الميتة. ظل قلبه يقفز بقوة لمدة ساعة تقريبًا.

هبط الظلام فى الوادى وبدأ الجندى يفكر فى الأمر. ماذا يفعل؟ هل يتحرك نحو جيشه؟ لكن كيف؟ وفى أى اتجاه؟ عاوده الهم الذى اجتاحه فى بداية الحرب. لم يكن يتحلى بالشجاعة أبدًا ولا بالطاقة الكافية لاستكمال طريقه ومواجهة الأخطار فى كل لحظة.

لكن ماذا يفعل؟ لا يستطيع البقاء فى هذا الوادى حتى نهاية العدوان. لو كان باستطاعته الاستغناء عن الطعام! يجب أن يأكل كل يوم.

وجد نفسه وحيدًا وهو يرتدى زى الجندية وسط الأعداء، بعيدًا عن الرفاق الذين يدافعون عنه. ارتجف.

فكر فجأة: لو كنت سجينًا! امتلأ قلبه بهذه الرغبة، رغبة قوية متطرفة فى أن يكون سجينًا فى جيش الفرنسيين. هكذا سينقذ نفسه، سيجد المأكل والمأوى بعيدًا عن الطلقات النارية. هل هذا ممكن؟ سجن جميل فى حراسة مشددة. يا له من حلم رائع. تملكته هذه الرغبة وهو يقول فى نفسه: سأعتبر نفسى سجينًا.

هب واقفًا وقرر تنفيذ هذا المشروع دون التردد لحظة واحدة. وقف ثابتًا ثم ارتجف عندما اكتشف المشاكل الجديدة.

أين هو السجن؟ و كيف يحدث ذلك؟ إلى أى اتجاه يذهب؟ تخيل المشاهد المرعبة، مشاهد القتلى و الجرحى. تخيل نفسه يجرى بين المخاطر، مغامرًا وحيدًا بقبعته المدببة فى الحقول.

ماذا سيحدث لو التقيت الفلاحين؟ عندما يرى الفلاحون جنديًا بروسيًا تائهًا أعزل سيقتلونه بسرعة مثل كلب أجرب. ربما سيذبحونه و يسلخونه، ربما سيلتهمونه بعد تمزيقه إربًا.

ما الذى سيحدث لو التقى الصيادين الفرنسيين؟ إنهم يتعاملون بدون أى قانون و لا أية أخلاق. سيقتلوننى على سبيل المزاح ليضحكوا. تخيل نفسه مربوطًا فى الجدار فى مواجهة اثنتى عشرة بندقية.

ما الذى سيحدث لو التقى الجيش الفرنسى نفسه؟ جنود المقدمة سيحفظون له حياته مؤقتًا للحصول على المعلومات بطريقتهم الخبيثة ثم سيقتلونه. سمع صيحات الجنود المختفية خلف الجبال بينما هو يقف وحيدًا وسط الحقول. شعر بالطلقات النارية وهى تخترق جسده. ارتجف بائسًا. لا يوجد حل لمشكلته.

هبط الظلام كثيفًا، الليل صامت أسود. لم يتحرك من مكانه. يرتجف لأقل صوت مهما كان خفيفًا. الأرانب تجرى حوله. نعيق البوم يمزق روحه، ترجفه مثل الجرحى. فتح عينيه عن آخرهما محاولاً الرؤية فى الظلام وهو يعتقد دائمًا فى وجود خطوات قريبة منه.

بعد ساعات طويلة من القلق والهم لاحظ خلال فروع الأشجار التى فوقه السماء قد أصبحت صافية. بدأ يشعر بالارتياح. ارتخت كل عضلاته وبدأ قلبه يهدأ وأغلق عينيه ونام.

عندما استيقظ بدت له الشمس فى كبد السماء، ربما ساعة الظهيرة. لا يوجد أى صوت فى الحقول الهادئة وشعر بالجوع الشديد يداهمه، تحرك فمه وهو يتذكر الوجبة العسكرية التى يقدمونها للجنود.

هب واقفًا وتحرك بضع خطوات، شعر بسيقانه ضعيفة وهو يفكر في مصيره. راح يقارن لمدة ثلاث ساعات بين ما هو صواب وما هو خطأ. يبدل رأيه فى كل لحظة، يذهب عقله من النقيض إلى النقيض.

أخيرًا بدت له فكرة منطقية وعملية وهى أن يتجه إلى القرية وحيدًا بدون سلاح وبدون أية معدات تبدو خطيرة، يجرى أمامهم وهو رافعًا يديه ليؤكد لهم الاستسلام.

رفع قبعته المدببة المميزة للجيش الألمانى. لا يبدو أحد فى الأفق. فى جهة اليمين توجد قرية صغيرة ترسل بدخانها إلى السماء. إنها رائحة الطعام. فى جهة اليسار لاحظ وجود صف من الأشجار يظلل الطريق إلى قصر كبير بجانب مخزن السلاح.

ظل على هذا الحال حتى هبط المساء، يعانى الذعر، لا يرى إلا الغربان ولا يسمع إلا أصواتًا خافتة آتية من بعيد. الظلام اقتحم أعماقه. دخل مخبأه فى الحفرة و نام محمومًا يعانى الكوابيس، إنه نوم الجوعان.

عـاد الفجـر فـوق رأسـه وعـاد إلـى الملاحظـة والمراقبـة. لكـن الحقـول خاويـة تمامًـا مثـل اليـوم السـابق و شـعر بنـوع جديـد مـن الخـوف. الخـوف مـن المـوت جوعًـا. رأى نفسـه ممـددًا فـى عمـق الحفـرة وراى كل الحيوانـات والطيـور تنهـش جسـده المسـجى ميتًـا مـن الجـوع. شـعر بالحيوانـات وهـى تزحـف تحـت ملابسـه بحثًـا عـن اللحـم االبـارد وشـعر بالغـراب الضخـم وهـو يلتهـم عينيـه.

هـذه التخيـلات أصابتـه بالهـوس، رأى نفسـه يمـوت مـن الضعـف عاجـزًا عـن السـير. ألقـى نظـرة إلـى القريـة ورأى ثلاثـة فلاحـين يخرجـون إلـى الحقـول حاملـين الفـؤوس، فـدس نفسـه فـى الحفـرة.

مـا أن هبـط الظـلام حتـى خـرج مـن الحفـرة و اتخـذ طريقـه محنيًـا خائفًـا و قلبـه ينبـض بعنـف. اتجـه إلـى القصـر البعيـد. لقـد فضـل هـذا الاتجـاه عـن القريـة التـى بـدت لـه مـأوى للنمـور.

نوافـذ الطابـق الأسـفل تتـلألأ. إحـدى النوافـذ مفتوحـه ويخـرج منهـا رائحـة اللحـوم الطازجـة. اخترقتـه الرائحـة حتـى وصلـت إلـى بطنـه فراحـت أمعـاؤه تتلـوى. وفجـأة، بـدون تفكيـر تقـدم نحـو النافـذة وهـو يرتـدى قبعتـه.

رأى ثمانيـة يلتفـون حـول المائـدة الكبيـرة. فجـأة لمحتـه خادمـة وحدقـت بعينهـا وارتبكـت حتـى سـقط كوبهـا. اتجهـت كل الأنظـار إليـه. لقـد اكتشـفوا العـدو.

سيدى! البروسيون اقتحموا القصر.

كانت صرخة واحدة فى البداية ثم أصبحت ثمانى صرخات مفزعة بأصوات مختلفة ثم دب الهرج و المرج و فروا هاربين من الباب. سقطت المقاعد، الرجال دفعوا النساء ثم مروا فوقهم. خلال ثانيتين أصبح المكان خاويًا بينما الطعام على المائدة أمام «والتر شنافز» الذى مازال واقفًا أمام النافذة.

بعد بضع لحظات من التردد اخترق النافذة. الجوع جعله يرتجف محمومًا لكن الخوف مازال يشل حركته. تنصت، يبدو أن كل البيت فى حالة تأهب. الأبواب أُغلقت، خطوات سريعة فى الطابق الأعلى. تنصت البروسى مرتجفًا على هذه الحركات ثم سمع أصواتًا حادة كما لو أن الأجساد تتساقط على الأرض المبللة بجوار الجدار. أجساد بشرية تقفز من الطابق الأعلى.

ثم اختفت كل الأصوات وكل التحركات وغرق القصر فى الصمت مثل القبر.

والتر شنافز» جلس أمام أحد الأطباق و راح يأكل بشراهة وبسرعة خوفًا من المداهمة فى القريب العاجل. يأكل بكلتا يديه، يزدرد الطعام بسرعة دون أن يمضغه.

أفرغ كل ما فى الأطباق والزجاجات حتى الثمالة. احمرت وجنتاه. خلع سترته من التخمة وأصبح عاجزًا عن الحركة. أغلق عينيه، هدأ عقله، وضع رأسه الضخم على ذراعيه فوق المنضدة وفقد وعيه.

مع الساعات الأولى للنهار راى الظلال تنزلق فى غرفة المهملات، كثيرون و صامتون. أحيانًا يكتشف تحت الضوء الشاحب القطع النحاسية على الصدور.

القصر الهادئ يلقى بظلاله السوداء. لا يوجد ضوء إلا فى نافذتين فى الطابق الأسفل. فجأة دوت الصرخة:

- إلى الأمام، هجوم يا أولادى.

فى لحظة واحدة تحطمت الأبواب والنوافذ تحت الهجوم العنيف. فى لحظة خاطفة هجم خمسون جنديًا مدججون بالسلاح على المطبخ حيث ينعم «والتر شنافز» بالهدوء. وجهوا إلى صدره خمسين بندقية، كبلوه من سيقانه ويديه ورأسه.

كان ضعيف الذكاء حتى أنه لم يستطع أن يفهم ما يحدث لكنه مصابًا بالذعر. تقدم نحوه ضابط يتلألأ بالذهب ووضع ساقيه فوق بطنه وقال:

- أنت سجينى. هيا بنا.

البروسي لم يسمع إلا كلمة «سجين» وسعد بها. ضحك. أخيرًا أصبح سجينًا.

دخل ضابط آخر و قال:

– سيدى، الأعداء فروا هاربين، يبدو أن لديهم الكثير من الجرحى. أصبحنا أسياد المكان الآن.

هتف الضابط الذى ألقى القبض عليه:

- النصر لنا .

ثم أخرج دفترًا صغيرًا من جيبه و كتب: هاجمت بالقوة المكونة من خمسين جنديًا تحت قيادتى واستطعت قهر العدو وإجباره على الفرار جريحًا وسقط الكثير منهم أسيرًا لدينا.

ثم قاده إلى السجن وأمضى البروسى أيامه سعيدًا. أصبح متحررًا من كل العلاقات الإنسانية، أصبح لا يعانى شيئًا أبدًا. يأكل و يشرب وينام. أحيانًا يرقص فى نشوة سعيدًا بأنه أصبح سجينًا.

●●●

صخـــرة الأكتع

إنه موسم «أكتع القطب الشمالى».

مـن إبريـل حتـى نهايـة مايـو، قبـل أن يأتـى المصطافـون الفرنسـيون، نـرى علـى شـاطئ «إبتـرات» بعـض السـادة العجائـز يرتـدون أحذيـة برقبـة طويلـة و سـترات الصيـد. يمضـون أربعـة أو خمسـة أيـام فـى فنـدق «هوفيـل» ثـم يختفـون ويعـودون بعـد ثلاثـة أسـابيع. ثـم يذهبـون بـلا رجعـة.

لا نراهم إلا فى الربيع التالى.

إنهـم أخـر صيـادى «الأكتـع». إنهـم المتبقـون لأن عددهـم كان يصـل إلـى عشـرين منـذ ثلاثـين أو أربعـين سـنة. كلهـم فـى غايـة النشـاط. لـم يبـق منهـم الآن إلا عـدد قليـل.

«الأكتـع» هـو طائـر مهاجـر نـادر جـدًا ويمتـاز بعاداتـه الغريبـة. يعيـش معظـم أيـام السـنة فـى الأرض الجديـدة، جـزر «سـان بيـار» و «ميكولـون». لكـن في موسـم التـزاوج يهاجـر عبـر المحيـط. كل سـنة يأتـى ليبنـى عشـه ويضـع بيضـه فـى نفـس المكان، في صخـرة تدعـى «صخـرة الأكتـع» بالقـرب مـن «إيتـرات». لا نعثـر عليـه إلا هنـا، مـازال يأتـى دائمًـا. الصغـار التـى فـى الأعشـاش ترحـل لمـدة عـام بعـد أن تنمـو وتتعلـم الطيـران.

لماذا لا تذهب هذه الطيور إلى مكان آخر؟ ألا يوجد أماكن أخرى مشابهة تقابلها في الطريق؟ ما هى القوة التى تدفعها لذلك؟ ما سر هذا السلوك الغريزى الذى يدفعها إلى هذا المكان؟ هل العاصفة دفعت بالمهاجرين الأوائل إلى هنا وأصبح الأبناء يفعلون مثلهم؟ ولماذا يعود الأبناء والأحفاد؟

أعدادهم ليست كثيرة. بضع مئات على أكثر تقدير. يبدو أنها أسرة واحدة اعتادت هذه الهجرة السنوية.

فى كل ربيع يأتى الجيل الجديد وينتظرهم نفس الصيادين فى نفس القرية. كنا نرى هؤلاء الصيادين وهم شباب والآن أصبحوا عجائز لكنهم يصرون على هذا اللقاء السنوى منذ ثلاثين أو أربعين عامًا.

فى ذات ليلة من إبريل الماضى وصل الصيادون ينقص أحدهم وهو السيد «أرنال».

إنه لم يراسل أحدًا و لم يعط أية معلومات لأحد، مع ذلك لم يمت مثل الآخرين لأن هناك من شاهده. طالت فترة الانتظار. جلس الأصدقاء على المائدة لتناول العشاء بهدوء. ثم دخلت عربة إلى فناء الفندق. وصل المتأخر. جلس مبتهجًا يفرك يديه وأكل بشراهة. ولأن أحد الرفاق امتعض من تصرفه قال له:

- نعم، ليس لدى وقت لتبديل ثيابى.

ذهبوا إلى الفراش فور الانتهاء من العشاء لأنه يجب الاستيقاظ مبكرًا لمداهمة الطيور. لا يوجد ما هو أروع من هذه الرحلة الصباحية.

فى الثالثة صباحًا يوقظ عمال المراكب الصيادين عن طريق إلقاء الرمال على النوافذ. يستعدون خلال دقائق و يهبطون إلى الشاطئ. الغسق لا يبدو فى السماء فى هذه اللحظة وتكون النجوم شاحبة بينما البحر يمسح الرمال والنسمات طازجة حتى أننا نرتجف رغم الثياب الثقيلة.

الرجال يدفعون المركب فوق الرمال فنسمع صوت الاحتكاك الخشن، ثم تبدأ الرحلة مع أول موجة. يرتفع الشراع الداكن وينتفخ قليلاً بالهواء ويتموج فى عدة أشكال غريبة حسب الرياح، ونصل إلى فتحة الخليج التى نراها بالكاد.

تسطع الشمس قليلاً لتبدد الظلام وتبدو لنا الصخرة من بعيد، صخرة بيضاء كبيرة كأنها جدار فى عرض البحر. نقترب من الميناء و نرى السفن الضخمة ويتأرجح مركبنا فى المياه المضطربة. ثم نلمح الشاطئ فجأة حيث يعيش مئات النوارس. هذه هى جزيرة الأكتع.

بمنتهى البساطة هى نتوء صغير من الجرف الصخرى. وسط الصخور نرى رؤوس الطيور وهى تراقب مركبنا. إنها الطيور الصغيرة التى تقبع فى أعشاشها و تخشي الرحيل. بعضهم يجلس علي حافة العش، يبدو أنهم يجلسون على مؤخراتهم التى تبدو مثل الزجاجة لأن أرجلهم قصيرة جدًا. عندما تسير على الأرض تبدو مثل الحبق البرى. لا تطير بعد الجرى و فرد الأجنحة مثل كل الطيور بل تلقى بنفسها من العش مثل قطعة الحجر بينما ينتظرها الصيادون. يبدو أنها تعلم مصيرها لكنها لا تحاول الهرب. يصرخ المراكبى: افعلوا ضجة كبيرة بضرب الأخشاب، هكذا تخاف الطيور وتخرج إلى البحر فيسهل اصطيادها.

نفعل ذلك لمدة ساعة. فى بعض الأحيان تخرج الإناث من أعشاشها رغم رقودها على البيض، نبدأ الصيد وتتساقط الطيور على الصخرة البيضاء وهى تنزف الدم.

فى اليوم الأول، كان السيد «أرنال» يصطاد مبتهجًا كالعادة. لكن أثناء العودة فى العاشرة صباحًا تحت الشمس الساطعة بدا حزينًا قلقًا على غير عادته.

عندما عدنا إلى البلدة أتى إليه أحد أفراد أسرته يرتدى ملابس سوداء وتحدث إليه بصوت منخفض. بدا كأنه يتفكر ويتردد ثم قال: لا، غدًا.

فى اليوم التالى عدنا للصيد. السيد «أرنال» فقد الكثير من الطيور رغم مرورها بالقرب من فتحة بندقيته. ضحك أحد الأصدقاء وسأله إن كان قد سقط فى الحب حديثًا. سأله عن السر الذى يشغل باله. فقال:

- بالفعل يجب أن أرحل بسرعة وهذا يزعجنى.

- كيف تترك الصيد بسهولة؟ و لماذا؟

- لدى أعمال كثيرة، لا أستطيع الانتظار كثيرًا.

ثم راح يتحدث فى موضوعات أخرى.

فى ساعة العصر ظهر السيد «أرنال» وبدأ يستعد للرحيل. حاول الأصدقاء منعه. قال أحدهم:

- لا أعتقد أنها أعمال هامة جدًا بدليل أنك انتظرت معنا يومين.

اضطرب السيد «أرنال» وهو يفكر بجدية. بعد الكثير من التردد قال:

- أنا... أنا... أنا لا أعيش بمفردى. يوجد معى ربيبى.

انفجرت الصيحات والاستفسارات:

- ربيبك؟ أين هو؟

احتقن وجهه بالدماء وقال:

- كيف لا تعرفون ذلك؟... كيف؟... لكنى أجلت هذا الأمر. لقد مات.

هبط الصمت كثيفًا. ثم أكمل السيد «أرنال» مضطربًا:

- أشعر بالحزن الشديد لفقده. الجثة فى منزلى فى «بزفيل». أتيت إليكم حتى لا أخلف موعدى لكن لا يجب التأخير أكثر من ذلك.

قال أحد الصيادين بغلظة:

- طالما إنه ميت، إذًا تستطيع الانتظار معنا يومًا آخر.

قال الآخرون: هذا مؤكد.

اضطرب السيد «أرنال» و قال:

- هل تعتقدون أن هذا ممكن؟

قال كل الصيادين بصوت واحد:

- بالتاكيد عزيزى. طالما إنه ميت، التأخير لمدة يومين لن يزعجه فى شىء أبدًا.

التفت السيد «أرنال» إلى الرجل الذى يرتدى ملابس سوداء وقال:

- إذًا، سأعود بعد غد.

●●●

الصدأ

لا يهوى شيئًا فى حياته إلا الصيد. يصطاد كل يوم من الصباح إلى المساء. يصطاد بشراسة. يصطاد فى الشتاء والصيف، فى الخريف والربيع. فى المستنقعات والسهول عندما تسمح القوانين بذلك. يصطاد بالبندقية بالتخفى والجرى والمطاردة بالكلاب. لا يتحدث إلا عن الصيد. يحلم بالصيد. يكرر دائمًا: البؤساء هم من لا يحبون الصيد.

إنه الآن فى الخمسين من العمر، أنيق طازج أصلع، يميل إلى السمنة لكنه شرس، يحلق شاربه ليحرك فمه بحرية ويسهل عليه إطلاق الصيحات القوية.

لا نعرفه فى البلدة الا باسمه «هكتور» بينما اسمه كاملاً هو البارون «هكتور جونرو دى كوتيليه».

يعيش وسط الأحراش فى قصر ريفى ورثه عن أسرته. يعرف كل النبلاء فى المنطقة و يلتقى بهم فى رحلات الصيد. لا يحتك إلا بأسرة واحدة. أسرة «جورفيل»، جيرانه الودودون. الصداقة بينهم قديمة، تعود إلى الآباء والأجداد. فى هذه الأسرة يدللونه و يحبونه كثيرًا فيقول لهم: لو لم أكن صيادًا ما

تركتكم لحظة واحدة. السيد «جورفيل» صديقه منذ الطفولة. إنه مزارع ذكى يعيش بهدوء مع زوجته وابنته وصهره السيد «دارنتوت» الذى لا يفعل شيئًا بحجة دراسة التاريخ.

البارون «كوتيليه» يعتاد على تناول العشاء مع أصدقائه لكى يحكى لهم عن مغامراته فى الصيد. لديه الكثير من الحكايات، يحدثهم عن الكلاب كأنها شخصيات مرموقة معروفة للجميع. ينتزع عقولهم و يجذب اهتمامهم. يحلل ويشرح لهم: ما أن رأى «ميدور» أن الجرى سيستمر طويلاً حتى قال فى نفسه: انتظر أيها الجسور سنضحك كثيرًا. أشار لى برأسه يطالبنى بالاختفاء فى ركن و راح يضرب الأعشاب ليفعل الضوضاء فتهرب الضحية إلى زاوية لا يمكن الهرب منها. كل شىء حدث كما يريد. هكذا وجد الطائر نفسه فوق روثه عاجزًا عن الحركة دون اكتشافه. سب الطائر وهو يحثه على الاقتراب. سقط «ميدور» فأشرت له مشجعًا. هرب الطائر فقال لى: إنها مجرد لعبة هذه المرة سيد «هكتور».

«جورفيل»، «دارنتوت» و السيدتان يضحكون بجنون على هذه الحكايات المثيرة بينما البارون يتحدث بكل انفعال. يبتهجون بشدة عندما يقول لهم: وأخيرًا سقطت الفريسة. يضحكون بشدة وهم يسألون: هل الفريسة كانت جميلة؟

عندما يتحدثون عن شىء آخر لا يسمع شيئًا، يجلس وحيدًا صامتًا. وعندما يصمتون قليلاً يصيح فى بهجة مقلدًا أصوات الطيور. إنه لا يعيش إلا من أجل الصيد.

فجأة أصابه الروماتيزم والتزم الفراش لمدة شهرين. كان سيموت من الحزن والشجن. ولعدم وجود خادمة فى البيت استأجر خادمًا عجوزًا لإعداد الطعام ولم يكن طعامه جيدًا أبدًا. الخادم العجوز لا يهتم باى شىء، ربما لأنه يعانى المرض أكثر من سيده. ينام طوال النهار و الليل فوق المقعد بينما البارون يتقلب فى الفراش.

سيدات «جورفيل» يأتين من حين لآخر لزيارته فيشعر معهن بالبهجة لعدة ساعات. يحضرن له بعض الطعام، يعتنين بالنيران و يقدمن له وجبة الغذاء فى فراشه. عندما يرحلن يغمغم: يجب أن تأتين لتسكنّ هنا. فيضحكن.

بعد أن تحسنت حالته وخرج للصيد ذهب لتناول العشاء مع أصدقائه كالعادة. لكنه لا يبدو مبتهجًا. أصبحت هناك فكرة تلح عليه وتقلقه. الخوف من العودة إلى رقدة المرض والألم. فى أيام المرض كان النساء يدثرنه بالبطانية ويحطن رقبته بالمنديل. هذه أول مرة يفعل ذلك. غمغم بصوت حزين: لو عاد المرض سأهلك.

عندما انصرف قالت حرم «دارنتوت»: يجب أن نزوج البارون.

هتف الجميع: كيف لم نفكر فى ذلك من قبل؟ أصبحوا فى كل الأمسيات يبحثون بين الأرامل الذين يعرفونهم. وقع الاختيار على امراة فى الأربعين من العمر، جميلة، متوسطة الثراء، رفيعة الأخلاق، اسمها السيدة «برشا فيلى»

دعوها لقضاء شهر معهم، انزعجت لكنها أتت. كانت نشيطة ومبتهجة. أعجب السيد «كوتيليه» على الفور وهى سعدت به كأنه لعبة حية. أمضت معه ساعات طويلة تسأله عن سلوك الفرائس من الأرانب والذئاب. وضح لها سلوك مختلف الحيوانات وهو يؤكد لها أنها تفكر بعقل مثلنا.

هذا الاهتمام منها أسعده كثيرًا. فى ذات ليلة لكى يثبت لها إعجابه بها دعاها للخروج معه للصيد. هذا ما لم يفعله من قبل أبدًا. كانت الدعوة لطيفة ووافقت. إنها فرصة جيدة للتقارب و راح الجميع يعاونها و يقدم لها كل ما تحتاج إليه. بدت أمازونية متوحشة وهى ترتدى حذاءً برقبة طويلة و ملابس الرجال وتنورة قصيرة وسترة من القطيفة حتى الرقبة ضيقة جدًا وقبعة مروضى الكلاب.

البارون بدا مرتبكًا كأنه يخرج للصيد لأول مرة فى حياته. راح يشرح لها اتجاهات الريح والطرق المختلفة للمطاردة بالكلاب و طريقة إصابة الفريسة ثم اندفع إلى الحقول وهو يتبعها خطوة بخطوة مثل الأم التى تراقب الخطوات الأولى لوليدها.

« ميدور» ينهمك فى الصيد بينما البارون خلف تلميذته يرتجف مثل أوراق الشجر و يوجهها: انتبهى... انتبهى.... طائر الجحل...

ما أن أنهى قوله حتى ارتفع الضجيج من الأرض و ظهر طائر ضخم وهو يرفرف بجناحيه فى الهواء.

اندهشت السيدة «فيلى»، أغمضت عينيها وهى تطلق طلقتين واندفعت للخلف من رجة البندقية. عندما استعادت هدوءها رأت البارون يرقص مثل المجنون و«ميدور» يأتى حاملاً الطائرين.

منذ هذا اليوم أصبح السيد «كوتيليه» متيمًا بها. يقول وهو يرفع عينيه: يا لها من امرأة. أصبح يأتى كل الأمسيات ليتحدث عن الصيد.

فى ذات يوم سأله السيد «جورفيل»:

- لماذا لا تتزوجها؟

ارتجف البارون وقال:

- أنا؟ أنا؟... أتزوجها! لكن...

ثم صمت. ضغط على يد صديقه وغمغم:

- إلى اللقاء، صديقى...

واختفى بخطوات متعجلة فى الظلام.

مرت ثلاثة أيام دون أى لقاء. عندما ظهر كان شاحبًا من كثرة التفكير، صارمًا على عكس عادته. انفرد بالسيد «جورفيل» و قال له:

- يوجد لديك فكرة جيدة. حاول إقناعها عليك اللعنة. امرأة مثل هذه لم تُخلق إلا لى. سنصطاد معًا طوال السنة.

السيد «جورفيل» ابتهج و قال:

- أطلبها على الفور يا عزيزى. هل تريد منى القيام بهذه المهمة؟

ارتجف البارون فجأة و غمغم:

– لا... لا... يجب القيام برحلة قصيرة قبل ذلك. رحلة إلى «باريس»... عندما أعود سأخبرك بقرارى الأخير.

لم نستطع معرفة أية معلومات أخرى و رحل فى اليوم التالى.

طالت الرحلة كثيرًا. أسبوع، أسبوعين، ثلاثة أسابيع. «كوتيليه» لا يظهر أبدًا. أسرة «جورفيل» أصيبت بالذهول والقلق. لا يجدون ما يقولونه لصديقتهم التى أخبروها بنية البارون. يرسلون إلى قصره، كل يومين، من يبحث عن أخبار جديدة لكن خدمه لا يعلمون شيئًا.

فى ذات ليلة، بينما كانت السيدة «فيلى» تغنى وهى تعزف على البيانو، أتت خادمة غامضة تبحث عن السيد «جورفيل» وهى تقول بصوت منخفض جدًا: هناك رجل يطلبه.

إنه البارون يرتدى ملابس السفر. تبدل حاله كثيرًا، شاخ. ما أن رأى صديقه القديم حتى صافحه باليد و قال بصوت مجهد:

– وصلت للتو يا عزيزى و أتيت لك على الفور ولا أستطيع فعل شىء آخر.

ثم تردد و هو يقول:

– أريد أن أخبرك... فورًا... أن هذا... هذا الموضوع... الذى تعرفه... منتهى.

نظر إليه السيد «جورفيل» بذهول:

– كيف انتهى؟ و لماذا؟

– آه! لا داعى للسؤال أرجوك. الحديث فى هذا الموضوع مؤلم جدًا. لكن يجب أن تكون واثقًا من أننى أتعامل... كرجل شريف. لا أستطيع غير ذلك. ليس من حقى، أتسمعنى؟ ليس من حقي الزواج بهذه السيدة. سأنتظر حتى ترحل من عندكم لأعود لزيارتكم. من المؤلم جدًا أن أراها. الوداع.

قال ذلك ثم فر هاربًا.

دب الاضطراب فى كل الأسرة، يتناقشون وهم يبحثون فى ألف استنتاج من الواضح أن هناك غموضًا كبيرًا فى حياة البارون. ربما يكون لديه أطفال من علاقة قديمة. يبدو أن الأمر جاد جدًا. فى النهاية أخبروا السيدة «فيلى» أنها ستعود أرملة مثلما أتت أرملة.

بعد مرور ثلاثة أشهر، فى ذات ليلة، بعد وجبة العشاء الدسمة أصبح السيد «كوتيليه» يترنح وهو يدخن الغليون مع السيد «جورفيل» وقال له: لو علمت كيف أفكر كثيرًا فى صديقتك ستشفق علىّ.

ارتجف الآخر من سلوك البارون فقال بسرعة:

– عليك اللعنة يا عزيزى. حتى لو كان هناك أشرار فى حياتك لا يجب أن تفعل ما فعلت. على الأقل ، يجب تقديم الدوافع لذلك.

انزعج البارون و توقف عن التدخين وهو يقول:

– نعم، أنا نفسى لا أصدق ما حدث.

قال السيد «جورفيل» بصبر نافد:

- يجب أن تخبرنى بكل شىء.

راح السيد «كوتيليه» يجول ببصره فيما حوله ليتأكد من عدم وجود أحد بجوارهما ثم قال بصوت منخفض:

– سأخبرك بكل شىء لكى تعذرنى. منذ عشرين عامًا يا صديقى وأنا لا أعيش إلا من أجل الصيد. لا أحب غير ذلك كما تعلم و لا أشغل نفسى إلا بذلك. عندما اكتشفت واجباتى نحو هذه السيدة داهمتنى الوساوس، وساوس فى ضميرى. منذ أن ابتعدت عن ممارسة... الحب... أصبحت لا أعرف إن كنت قادرًا على... تعرف جيدًا... هل تتخيل إذًا؟ لم أمارس الحب منذ عشرين عامًا... تفهمنى طبعًا. فى هذه البلدة ليس من السهل ممارسة الحب. كذلك أصبح لدى أشياء أخرى أفعلها. أصبحت أفضل الطلقات النارية للبندقية. عندما فكرت أننى سأقف أمام القاضي و القس شعرت بالخوف و تعجبت لذلك. لكن إذا.... إذا.. أخفقت. الرجل الشريف يفكر جيدًا فى كل واجباته. سيكون علىّ واجبات لهذه السيدة. لكى أتأكد من ذلك ذهبت لقضاء ثمانية أيام فى باريس.

حاولت لمدة ثمانية أيام. لا شيء. لا شيء أبدًا. ليس خطأ فى الاختيار. اصطحبت أجمل الفتيات، حاولن معى بكل الطرق الممكنة... نعم، بالتأكيد كن عاريات تمامًا، ثم يسألننى: ماذا تريد إذًا؟... لم أستطع فعل أى شيء.

انتظرت لمدة خمسة عشر يومًا، ثلاثة أسابيع. كان لدى الأمل دائمًا. تناولت فى المطاعم بعض الوجبات المنشطة والتوت أمعائى... لكن دائمًا لا شيء.

فى هذه الحالة ليس أمامى إلا الانسحاب. هذا ما فعلته.

جاهد السيد «جورفيل» حتى لا يضحك. ضغط على يد البارون بشدة و هو يقول: أعذرك.

و بعد أن انفرد بزوجته أخبرها بكل شيء و هو مبتهج لكن حرمه لم تكن تضحك. كانت تسمع بجدية ثم قالت بحزم:

- البارون جبان يا عزيزى، لقد خاف. هذا هو كل ما فى الأمر. سأكتب غدًا إلى «برشا» و أطلب منها العودة فى أقرب الوقت.

خشي السيد «جورفيل» من هذا الاقتراح لكن زوجته قالت:

- طالما أنه يحب زوجته ستسير الأمور على أحسن وجه.

●●●

الحارس

أثناء حكى قصص ومغامرات الصيد بعد تناول العشاء، كان بيننا صديق قديم وهو السيد «بونيفاس». صياد ماهر ويشرب كثيرًا. رجل قوى و نشيط، مفعم بالأفكار والمشاعر والفلسفة، فلسفة ساخرة. ينتقد أشياء كثيرة بسخرية لاذعة ولا يبدى أى شعور بالحزن. قال فجأة:

- أعلم إحدى حكايات الصيد، أو بالأحرى مأساة الصيد، وهي غريبة جدًا. لا تشبه كل الحكايات التى نسمعها ولم أقصها على أحد لأننى أعتقد أنها لن تروق لأحد.

الحكاية ليست طريفة، هل تفهموننى؟ أقصد أن أقول لا يوجد منها أية فائدة و لا أية إثارة ولا أى شجن. أخيرًا هذا ماحدث.

كنت فى الخامسة و الثلاثين من العمر وكنت أصطاد بشراسة.

فى هذا الوقت كنت أذهب إلى الأرض المعزولة على حدود «جومياج»، المكان محاط بالغابات ومناسب جدًا لاصطياد الأرانب. كنت أقضى هناك وحيدًا أربعة أو خمسة أيام كل عام. القوانين هناك تمنعنى من اصطحاب أحد معى.

كنت أقيم هناك مع الحارس، إنه جندى قديم متقاعد، رجل عنيف يلتزم بوعوده، لكنه مرعب بالنسبة للصيادين المخالفين، لا يهاب شيئًا. يسكن وحيدًا بعيدًا عن القرية في بيت صغير، أو بالأحرى خرابة تتكون من حجرتين فى الأسفل، مطبخ ومخزن، وحجرتين النوم فى الطابق الأعلي. إحدى الحجرتين ضيقة جدًا، لا تتسع إلا لفراش و صوان ومقعد. كنت أسكن هذه الغرفة.

الأب «كافاليه» يسكن الغرفة الأخرى. عندما قلت لكم إنه يعيش بمفرده أخطأت فى التعبير، كان يعيش معه ابن أخيه، إنه وغد فى الرابعة عشر من العمر، يذهب لشراء الطعام من القرية التى تبعد ثلاثة كيلومترات و يعاون العجوز فى معيشته.

هذا الفاسد نحيف، طويل، خبيث قليلاً، أشقر، شعره خفيف مثل ريش الطيور، من خفة شعره يبدو أصلعًا. ساقاه ضخمة و يداه قوية مثل التماثيل القديمة.

شاذ قليلاً ولا يلتقى أحدًا أبدًا. يبدو لى كأنه حيوان حقير. إنه مثل ابن عرس أو ثعلب. ينام فى ثقب صغير أعلى السلم الذى يقود إلى الحجرتين.

أثناء إقامتى القصيرة فى هذا المكان كنت أطلق على هذه الخرابة اسم الكشك، كان «ماريوس» يتنازل عن فراشه لامرأة

عجـوز اسـمها «سيلسـت»، كانـت تأتـى للقيـام بالطبـخ لـى لأن وجبـات الأب «كافاليـه» لا تكفـي أبـدًا.

هكذا تعرفون الأشخاص و المكان وهذه هى الحكاية.

فـى عـام ١٨٥٤، يـوم ١٥ أكتوبـر، أتذكـر هـذا التاريـخ جيـدًا ولـن أنسـاه أبـدًا.

رحلت إلـى «روان» بالحصـان متبوعًـا بكلبـى «بـوك»، إنـه كلـب ضخـم مفتـول العضـلات مفيـد جـدًا للصيـد والحمايـة. كان معـى حقيبـة السـفر وبندقيتـى. كان الجـو بـاردًا جـدًا، الريـاح حزينـة والسـحب داكنـة فـى السـماء.

صعـدت إلـى تبـة «كانتلـو» و رأيـت وادى السـين يتمـدد أمامـى إلـى الأفـق بتعرجاتـه مثـل ثعبـان. «روان» علـى يسـارى بأجراسـها الكثيـرة، ومـن اليمـين يتوقـف النظـر عنـد الغابـات البعيـدة. عبـرت غابـات «رومـاز» أحيانًـا فـوق الحصـان و أحيانًـا سـيرًا علـى الأقدام. وصلـت فـى الخامسـة أمـام الكشـك حيـث وجـدت الأب «كافاليـه» و«سيلسـت» فـى انتظـارى.

آت إلـى هنـا منـذ عشـر سـنوات فـى نفـس التوقيـت وأجـد نفـس الأشـخاص وأسـمع نفـس الـكلام: طـاب يومـك سـيدى، هـل الصحـة جيـدة؟

لا يبدو أى تغيير فى «كافاليه»، إنه يقاوم الزمن مثل شجره قديمة. لكن «سيلست»، منذ أربع سنوات أصبحت غير مفهومة.

رغم نشاطها الزائد تبدو كأنها مكسورة، وهى تسير يتدلى أعلى جسدها إلى الأمام بزاوية تسعين درجة تقريبًا.

المرأة العجوز ماكرة جدًا، تبدو صامتة دائمًا وهى تتأملنى وتقول لى بعد كل رحلة:

- ربما يكون هذا آخر لقاء بيننا سيدى العزيز.

هذا الوداع الحزين و المخيف من هذه الخادمة العجوز التى تخشي الموت يصيب قلبى بالحزن كل عام.

هبطت من الحصان بينما «كافاليه» سحب حصانى بخطوات بطيئة إلى الحظيرة. دخلت الكشك متبوعًا بـ «سيلست» التى ذهبت إلى المطبخ.

عاد إلينا الحارس و لاحظت من الوهلة الأولى أنه ليس كعادته، يبدو مشغولاً، قلقت فسألت:

- حسنًا يا «كافاليه». هل كل شىء يسير حسب رغبتك؟

غمغم:

- نعم و لا. يوجد أشياء حسنة ويوجد أشياء تقلقنى.

سألت:

- ماذا يعنى هذا؟ تحدث.

هز رأسه و قال:

- لا، ليس الآن سيدى. لا أريد أن أزعجك فور وصولك.

رجوته بالحديث لكنه رفض تمامًا قبل تناول العشاء لكنى استنتجت أن هناك أمرًا خطيرًا.

لا أجد كلمات أقولها فسألت:

- الفرائس؟ هل يوجد فرائس؟

- نعم، بالنسبة للفرائس يوجد منها الكثير.

قال ذلك بصوت جاد جدًا حتى أنه بدا لى مضحكًا. شاربه الرمادى الكثيف يبدو على وشك السقوط. و فجأة اكتشفت أننى لم أر ابن أخيه فسألته:

- و «ماريوس»؟ أين هو؟ لماذا لم يأت لاستقبالى؟

ارتجف الحارس وهو يحدجنى بنظرة غريبة و قال:

- حسنًا سيدى، أفضل أن أقص عليك الموضوع. بصراحة شديدة الموضوع يخصه .

- حسنًا! أين هو إذًا؟

- إنه فى الحظيرة سيدى. أنتظر وصوله.

- ماذا فعل إذًا؟

- هذا ما حدث سيدى.

تردد الحارس وتغير صوته، ارتجف وبدت التجاعيد فى وجهه. تجاعيد العجز. ثم قال بهدوء:

- لاحظت فى هذا الشتاء إنهم يسرقون فى غابة «روزيرى» لكنى لم أستطع الدفاع عن نفسى. مضت علىّ ليال سوداء سيدى، لا أجد أى مخرج. أثناء ذلك كانوا يسرقون فى تبة «إيكو رشيفيل». إنها إهانة لى. لكن بالنسبة للسارق، مستحيل! يقولون إنه يتبع كل خطواتى ويعرف كل أفكارى.

و فى ذات يوم، ونحن نغسل ملابس «ماريوس»، ملابس يوم الأحد، عثرنا على بعض المال فى جيبه. من أين أتى بالمال هذا الوغد؟

فكرت فى الأمر جيدًا لمدة ثمانية أيام و لاحظت إنه يخرج فور دخولى للراحة. نعم سيدى.

راقبته لكن دون أن أشك به. نعم دون أن أشك به. عندما اتجهت للاستراحة أمامه قمت بمتابعته. فى المراقبة لا يوجد إنسان مثلى سيدى.

هذا ماعلمته. نعم، «ماريوس» يسلب الناس على أرضى. ابن أخى، حارسى، كنت سأقتله فى مكانه لكنى صفعته فقط وتوعدته بعلقة أخرى فى حضورك. يجب تأديبه.

هكذا أصابنى الحزن بالضعف. أنت تعلم حجم هذه المشاكل لكن أخبرنى ماذا ستفعل؟ لا يوجد له لا أب ولا أم. هذا الوغد ليس له أى قريب غيرى. لقد حافظت عليه ولا أستطيع طرده، أليس كذلك؟

لكنى هددته لو عاد لفعل ذلك سيكون الأمر منتهيًا. لن يجد منى أى تعاطف بعد ذلك. هل فعلت الصواب سيدى؟

قلت له وأنا أربت على يديه:

- حسنًا ما فعلت يا «كافاليه». أنت رجل محترم.

هب واقفًا و هو يقول:

- شكراً سيدى. الآن سأذهب لتأديبه. يجب تهذيبه.

أعلم أن منع العجوز عما ينتويه لن يجدى فى شىء لذلك تركته يفعل ما يريد.

عـاد بعـد لحظـات وهـو يجـر الوغـد مـن أذنـه. كنـت أجلـس على مقعـد مـن القـش وأرسـم الصرامـة على وجهى مثل القضـاة.

بـدا لـى أن «ماريـوس» كبـر، أصبـح أكثـر قبحًـا مـن السـنوات الماضيـة. يبـدو خبيثًـا ماكـرًا وبـدت يـداه ضخمـة. دفعـه عمـه أمامى وقـال بنبـرة عسـكرية:

- اطلب السماح من السيد.

الوغد لم يقل شيئًا.

هـب الحـارس العجـوز ورفعـه مـن علـى الأرض وراح يوجـه لـه عـدة لكمـات عنيفـة حتـى أننـى اضطـررت للتدخـل لوقـف المعركـة. صـرخ الطفـل قائـلاً: آسـف... آسـف...

أعاده «كافاليه» على الأرض و أجبره على الركوع وقال:

- اطلب السماح.

غمغم الوغد قائلاً: آسف.

دفعـه عمـه بغلظـة وفـر الصغيـر هاربًـا ولـم أشـاهده طـوال هـذه الليلـة لكـن «كافاليـه» ظهـر مذهـولاً وهـو يقـول: إنـه نبتـة خبيثـة. أثنـاء العشـاء راح يكـرر:

- اه! هذا يقتلنى سيدى. أنت لا تعرف، هذا يقتلنى.

حاولت تهدأته دون جدوى وذهبت للنوم مبكرًا للاستيقاظ مبكرًا لممارسة الصيد. كان كلبى ينام بجوار الفراش عندما أطفأت الشمعدان.

استيقظت فى منتصف الليل بنباح كلبى الشرس ولاحظت الدخان الكثيف فى حجرتى. قفزت من الفراش وأضأت الأنوار، فتحت الباب واندفعت ألسنة اللهب. المنزل يحترق.

أحكمت غلق الباب وألقيت ملابسى عن النافذة. صنعت حبلاً من الفراش وبالحبل عاونت كلبى على الهبوط من النافذة، ثم أنزلت سلاحى بنفس الطريقة وهربت أنا أيضًا بنفس الطريقة. رحت أصرخ بكل قوتى: «كافاليه»... «كافاليه»... «كافاليه»...

لكن الحارس لا يأتى أبدًا. نومه عميق مثل كل الجنود المتقاعدين.

خلال نوافذ الطابق الأرضى بدا المكان كأنه فرن مستعر. لاحظت وجود كميات كبيرة من القش داخل المنزل لتضخيم الحريق. إذًا الحادث مُتعمد. عدت أصرخ: «كافاليه»...

اعتقدت أن الدخان خنقه. عمرت سلاحى وأطلقت طلقة على نافذته. تحطم الزجاج واستيقظ العجوز. ظهر مفزوعًا مجنونًا و هو يرتدى ملابس النوم. صرخت فيه:

- المنزل يحترق، اقفز من النافذة بسرعة، بسرعة.

هاجمت النيران مدخل المنزل ثم زحفت على الجدران حتى اقتربت منه لكنه نجح فى القفز بخفة مثل القط.

السقف المصنوع من القش تحطم من الوسط وسقط فوق السلم ثم تطايرت شظايا المبنى فى الهواء و سقطت مثل المطر حول الكشك. سأل «كافاليه» مذهولاً:

- كيف حدث ذلك؟

أجبته:

- لو وضعوا النيران فى المطبخ؟

غمغم:

- من يستطيع وضع النيران فى المطبخ؟

استنتجت فجأة وأعلنت:

- «ماريوس».

فهم العجوز وقال:

- اه! لهذا لم يدخل المنزل.

لكن أتتنى فكرة مفزعة فصرخت:

- و «سيلست»؟ «سيلست»؟

لم يجبنى لكن المنزل انهار أمامنا و أصبح قطعة رهيبة من الحجر المستعر. لابد أن السيدة العجوز تحولت الآن إلى قطعة من الفحم.

لم نسمع أية صرخة.

ولأن النيران أصابت الحظيرة تذكرت حصانى وجرى «كافاليه» لإنقاذه.

ما أن فتح باب الحظيرة حتى اصطدم بجسد نحيف وخفيف يفر هاربًا من بين سيقانه. إنه «ماريوس» يحاول الهرب بكل قوته.

أدرك «كافاليه» أنه لن يستطيع اللحاق به. لاحظ وجود سلاحى بالقرب منه وقبض عليه بقوه و أطلق النيران وسقط الهارب على الأرض وهو يحاول استكمال الفرار وهو يحبو على أربع. جريت نحو «ماريوس» الهارب وقبضت عليه.

فى التحقيقات طُلب منى الشهادة وقلت كل ما أعرفه دون تبديل حرف واحد. بعد ذلك اختفى الحارس العجوز وهجر المكان و لم أره حتى اليوم.

●●●

كتب للمترجم

- أفلاطون فى عصر الفضاء.
- زهرة الصحراء.
- القرصان.
- ١٢ قصة مهاجرة.
- أفكار متناقضة.
- الحلم.
- «كليوباترا» أميرة الحب و الحرب.
- الطاعون.
- «قرطاج».
- أساطير الهنود الحمر.
- أساطير الإغريق.
- «إسكندر» عبقرى السيف و الفكر.
- «يوليوس قيصر» العسكرى و السياسى.
- مقالات فلسفية.

- مقدمة فى الفينومينولوجيا.
- حضارات أمريكا القديمة.
- حكايات البحر.
- تفسير الأحلام.
- قبل الإعدام.
- أكلة لحوم البشر.
- حكايات الصيد.

●●●

الفهرس

الصفحة

حكايات أبو فصاد:..... ٥

الخنزير «موران»:..... ٩

المجنونة:..... ٢٧

«بيـــارو»:..... ٣٣

الرقصة:..... ٤١

الخـوف:..... ٤٧

مزحـــة النـورمـاندى:..... ٥٧

صاحـب الرفعـــة:..... ٦٥

المُنجـــدة:..... ٧٥

فى البحـــر:..... ٨٧

الوصـــية:..... ٩٧

فى الحـــقول:..... ١٠٥

العصافير المغردة :..... ١١٧

الابن:..... ١٢٥

القديس «أنطوان»:..... ١٢٩

مغامرة «والتر شنافز» :..... ١٥١

صخـــرة الأكتع :..... ١٦١

الصدأ:..... ١٦٩

الحارس :..... ١٧٩

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر